وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة–
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي (296–993هـ)

–جمع ودراسة–

مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في اللغة والأدب العربي
تخصص: الأدب القديم

إعداد الطالبة:
فائزة بن عمور

إشراف الدكتور:
أحمد قيطون

لجنة المناقشة:

أ.د العيد جلولي	جامعة ورقلة	رئيسا
أ.د أحمد قيطون	جامعة ورقلة	مشرفا
د. هاجر مدقن	جامعة ورقلة	مناقشا
د. أحمد حاجي	جامعة ورقلة	مناقشا

السنة الجامعية: 2014–2015

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوعات **الصفحة**

المقدمة.....أ، ب،ج، د

مدخل.....1-12

الفصل الأول:

هجاء المدن في الأدب العربي القديم.....20- 21

المبحث الأول: الهجاء والمدينة، حدود اصطلاحية

1-1 مفهوم الهجاء وتطوره.....22-29

1-2 مفهوم المدينة وعلاقتها بالهجاء.....30- 33

المبحث الثاني: هجاء المدن في الأدب العربي القديم.....34

2-1 الهجاء الجغرافي والطبيعي.....35- 42

2-2 الهجاء الأخلاقي والاجتماعي.....43- 50

خلاصة الفصل.....51

الفصل الثاني:

هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي القديم.....52

المبحث الأول: هجاء المدن المغربية

1-1 هجاء المدن المغربية نثرا(رحلة العبدري).....53-63

1-2 هجاء المدن المغربية شعرا.....64- 69

المبحث الثاني: هجاء المدن الأندلسية

2-1 هجاء المدن الأندلسية نثرا(معيار الاختيار).....71- 82

2-2 هجاء المدن الأندلسية شعرا.....83- 89

خلاصة الفصل.....90-91

الفصل الثالث:

دراسة فنية و سميائية.....92

المبحث الأول: دراسة شعرية فنية

1-1 الموضوعات والأساليب.....93- 100

1-2 الإيقاع في فن هجاء المدن.....101- 105

المبحث الثاني: دراسة سميائية للمقامة البربرية

2-1 هيكلة النص.....111- 119

2-2 سميائية العنوان والنماذج العاملية.....120- 127

2-3 التشاكل والتباين.....128- 133

المقدمـــــــة

يمر الإنسان في دورة حياتية مغلقة بين مكانين ضيقين حيث يكون في أول تشكله من أمشاج في رحم الأم، لينتقل بعد ذلك في عدة أمكنة إبان وجوده على وجه البسيطة، إلى أن يعود إلى المكان المغلق مرة أخرى في بطن الثرى، ويرتبط الإنسان في حالة وعيه بالأمكنة، ويتشكل فيها ومنها، وتتبلور لديه خلفيات معينة اتجاهها، يعتلق معها في صورة جدلية بين أخذ وعطاء، فالبيت والأرض والوطن،... مع الإنسان والزمن كلها تشكل خصوصية هذا الوجود الدُّنيوي الواسع والضيق في الآن نفسه. وقد ربطت الإنسان بالمكان علاقات مختلفة بحسب نفسيته وفكره أولا ، وبحسب طبيعة المكان ومتغيراته ثانيا منها؛ الرغبة، النفور، الشوق، الارتياح، والامتعاض، وغيرها...

وتعتبر المدينة من أهم الأماكن التي كانت طرفا في هذه الجدلية، إذ مع التوسع المكاني الجغرافي والتطور الحضاري الذي عرفته البشرية، صارت المدينة المكان الذي يستطيع من خلاله الفرد أن يمارس حياته التواصلية مع الآخرين، وأن يساهم في حركيتها سلبا وإيجابا.

ورغم تغير مشاعر الإنسان اتجاه هذه المدينة إلا أن المبدع وحده استطاع أن يفرغها في قالب فني إبداعي، يصور من خلاله مختلف الإحساسات التي تختلج في وجدانه.

يحاول البحث من هذا المنطلق رصد هذه الإبداعات من خلال التنقيب عنها في مضان الأدب المغربي والأندلسي، إلا أنه يكتفي بجانب واحد من هذه الأغراض ألا وهو الهجاء، لننظر في مدى حضور هذا الفن في الأدب المغربي، وما هي الأشكال التي احتضنت هذا الغرض، فيتشكل البحث الذي سنخوض فيه تحت عنوان "**هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي**" إلا أننا ومن خلال جمعنا للمادة حاولنا تحديد الفترة التي استغرقت المدونة وإن كانت واسعة شيئا ما؛ تبدأ من القرن الثالث هجري إلى التاسع منه، لا نكتف فيها بالجانب الشعري فقط بل سندرج النماذج النثرية إضافة لذلك، إذ الهدف هو تعرفنا على الأشكال التي قيل فيها هذا الغرض.

وقد كان التوجه إلى هذا المجال البحثي لدواع، منها رغبتنا في البحث في مجال الأدب المغربي والأندلسي بعد أن أطللنا على نزر منه في المشوار الدراسي، وإذ يعتق هذا الأدب بدرر جمالية فذة، إلا أننا قَّل أن نجد من يشحذ همته للغوص فيه و استكناه مغاليقه، وإن كان من المسلم به أن البحاثة الذين يتوجهون إلى مجال المدن يستوفون مجال المرثيات، باعتباره الفن الأكثر بروزا في الأدب المغربي والأندلسي خاصة، ولا مشاحة في ذلك إذ الأمر مرتبط بالأوضاع التاريخية وبفقد المسلمين للعديد من المدن العريقية و الأطواد الشامخة من أمثال "**قرطبة**"، فصار هذا الفن بذلك أكثر استقطابا للمبدعين من جهة، وللدارسين لهذه الظاهرة الإبداعية من جهة أخرى، ولذلك ارتأينا أن نعكس الاتجاه لننظر في الأدب الذي صور المجال السلبي في المدينة.

أما سبب اختيار المدن فنلاحظ أيضا ضآلة التطرق إلى علاقة المبدع المغربي والأندلسي بالمدينة، وإن التفتت بعض الدراسات المشرقية إلى ذلك دون أن تفرد للموضوع دراسات مستقلة، فجاء **فن هجاء المدن** متضمنا في موضوع الهجاء عموما نذكر منها "**اتجاهات شعر الهجاء في مصر والشام زمن الزنكيين والأيوبيين(489- 648)**" لمحمد يوسف عبد العزيز غريب" كما وجدت بعض المقالات في المجلات المتخصصة التي اهتمت بالموضوع أيضا مثل: "**شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة**" "لمشهور حبازي"، وكذا "**هجاء المدن والأقاليم في الشعر المغربي القديم**" "لنور الدين سعيداني".

والملاحظ أن هذه الدراسات إما أنها ترتبط بالهجاء عموما ولا ترتبط بمتغير واحد، فيأتي ذكر هجاء المدن عرضا فيها، أو أنها لا تعدو أن تكون مقالات تتطرق إلى الموضوع بصورة ضيقة، وفي كلا الحالتين فإن ذلك لا يسمح بسبر أغوار هذه النصوص ومعرفة أشكالها وطبيعتها والموضوعات التي طرقتها .

أما الإشكالات التي سيعالجها البحث فمنها ما هو متعلق بالشكل، وما هو متعلق بالموضوعات، إذ سنحاول الإجابة عن مدى حضور فن هجاء المدن في الأدب المغربي و

الأندلسي من خلال جمع المادة في فترة محددة، وما الأشكال التي جاءت بها؟ ثم ما الموضوعات التي طرقتها؟ وهل حمل النثر إضافة إلى الشعر هذه النظرة إلى المدينة وعناصرها؟ وإن كان الأمر كذلك فما الأشكال النثرية التي كانت أصلح لذلك؟

ولمعالجة هذه الإشكالات سيقسم البحث إلى ثلاث فصول، **الفصل الأول** يتعلق مبحثه بداية بجانب نظري، نتطرق فيه إلى ماهية الهجاء وعلاقته بالمدينة وارتباطه بالنثر والشعر على السواء، أما مبحثه الثاني فيلم بمجموعة من النماذج في هذا الفن، تتعلق بهجاء المدن في الأدب العربي القديم ككل، وقبل كل ذلك يصدر البحث بمدخل يعالج فيه حدود المغرب العربي والأندلسي، ولمحة تاريخية حول الفتح الإسلامي له، وانتشار اللغة العربية والتَمْدِين، ونتطرق في **الفصل الثاني**، إلى النماذج المجموعة شعرا ونثرا؛ قسم منه متعلق بالمدن المغربية وآخر بالمدن الأندلسية، وعن **الفصل الأخير** فسيكون دراسة فنية للجانب الشعري في هذا الفن، ومبحثه الثاني سنستعين فيه بالمنهج السيميائي لدراسة إحدى المقامات، المتعلقة بالموضوع. والبحث في كل ذلك يستعين بآليات الوصف والتحليل.

كما سنحاول الغوص في مصادر الأدب المغربي والأندلسي التي تجمع في طياتها نماذج تتعلق بالموضوع، ونخص بالذكر كتاب " **نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب**" **للمقري**، و"**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**" **لابن بسام** و "**زاد المسافر**" **لأبي بحر صفوان بن إدريس**، ونستعين أيضا بمؤلفات **لسان الدين بن الخطيب** مثل "**معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**" و"**الرحلة المغربية**" للعبدري، و" **المقامات اللزومية**" **للسرقسطي** كأهم المصادر التي نستقي منها مادة هذا البحث.

ومعلوم أن لا بحث يخلو من بعض العراقيل وبالنسبة لهذا البحث، فسنقول أننا وجدنا صعوبة في عملية الجمع وهي مرتبطة في الأصل بضيق الوقت، وقد اضطرتنا قلة المادة الشعرية للتوجه صوب المادة النثرية لاستكمال النصاب مما جعل العملية أكثر تعقيدا ونحسب أننا قصرنا في الجانب النثري منه بسبب ذلك.

والصعوبة الأخرى تتمثل في قلة التراجم والتعريفات المتعلقة ببعض الأدباء الذين وجدنا لهم نماذج متعلقة بالموضوع، وإن وجدت في بعض الأحيان فتكون قليلة لا تفي بالغرض، أو لا تستغرق كل حياته مما يصعب معرفة الأسباب الكامنة وراء نماذجه الشعرية في الهجاء.

كما أدى أيضا وجود بعض النصوص المجهولة النسب إلى التردد في إدراجها بادئ الأمر إلا أن قيمتها الموضوعية أو الفنية فرضت نفسها، والبحث والتحقيق في هذا الأمر يحتاج إلى جهد آخر ووقت أطول إلا إن تعلق الأمر بالفترة الزمنية فقد عمدنا إلى ضبط الكتب التي وردت فيها زمانيا حتى يتسنى إدراجها ضمن مادة البحث.

أرفع جزيل شكري وامتناني في الأخير إلى أستاذي المشرف الدكتور أحمد قيطون الذي رحب بالإشراف على هذا البحث، والذي لم يدخر جهدا في سبيل توجيهي ومد يد العون والمشورة، كما لا أنسى كل من أعانني ماديا ومعنويا من الأساتذة، والأصدقاء، والزملاء.وأدعو الله أن يجد كل من يهتم بمجال الأدب المغربي والأندلسي بعضا من ضالته فيما بحثناه، وأن تثرى الدراسات مستقبلا في هذا المضمار.

ورقلة: 14-06 215

مدخـــــــــــــــــل

مدخـــــل

لا تختلف الآراء في كون المسلمين العرب وجدوا مشقة كبيرة في فتح المغرب العربي الذي دام حوالي سبعين سنة[1]، وقد عرفت في المغرب قبل الفتح ملل ونحل غير الإسلام كغيرها من بقاع العالم سواء الوضعية منها أو السماوية و« كان البربر عموما يدينون بأديان مختلفة، فالمسحية في المدن الساحلية حيث كان الروم يستولون على تلك المناطق، واليهودية داخل البلاد، حيث ينتشر اليهود برحلاتهم التجارية كما جرت عادتهم في العالم في كل زمان كما كانت عبادة الأوثان قائمة لدى البربر»[2].

المغرب العربي،التسمية والحدود الجغرافية:

أما عن تسمية "**المغرب العربي**" وحدوده فإننا نجد لدى المؤرخين والجغرافيين اختلاف كبير في ذلك فقد « سمى "هيرودوت" والرحالة الإغريقي، وأبو التاريخ كما كان يلقب، النطاق الجغرافي الممتد من غرب مصر، حتى البحر الكبير باسم (ليبيا) وأطلق على سكانه اسم (الليبيين)، تمييزا لهم عمن جاوروهم وراء خط الرمال»[3]،« أما مصطلح "المغرب" فيرتبط ظهوره بعصر الفتنة بين علي ومعاوية أي قبل منتصف القرن الأول هجري، ويظهر أنه استعمل في هذه الفترة للدلالة على الجزء الغربي من العالم الإسلامي الذي كان يشمل "مصر" بملحقاتها، و"الشام" وما جاوره، ويقابله من الناحية الأخرى "المشرق الإسلامي" الذي كان يشمل "العراق" و"فارس" وما وراء النهر»[4].

فهذا المصطلح كما هو ملاحظ لم يرتبط بمنطقة المغرب العربي كما هو معروف لدينا في يومنا الحاضر، أو خلال الفتح الإسلامي له وذلك يعود لعدم التعرف على تلك المنطقة إلى حين،

---

[1]. تكون هذه المقاربة إذا اعتبرنا الفتح ابتدأ سنة 23هـ وتم نظريا سنة 93هـ.

[2]. كمال محمد شبانة، الدويلات الإسلامية في المغرب دراسة تاريخية حضارية، دار العالم العربي، ط1، مصر، محرم1429-يناير2008، ص18.

[3]. موسى لقبال ،المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، سياسة ونظم، المؤسسة الوطنية للكتاب ط3، الجزائر، 1984، ص13.

[4]. نفسه، ص14-15.

ونجد أن المسلمين قد أطلقوا تسمية المغرب على المناطق التي كانت تابعة للبلاد الإسلامية من الجهة الغربية، « أما إطلاق مصطلح (المغرب) على نطاق شمال إفريقية كله أو جزء منه فأغلب الظن أنه لم يقع قبل القرن الثالث الهجري أي في عصر بن الحكم الذي أشار في حديثه عن نشاط معاوية بن حديج[1] بقوله: خرج إلى المغرب بعد ابن أبي سرح[2] معاوية...»[3].

وما إن تفتح بلاد المغرب تتغير النظرة إلى مفهومه وحدوده، فنجد الجغرافي العربي "الشريف الإدريسي"« يحدد بداية ونهاية المغارب الثلاثة صراحة وضمنا عندما يذكر أن مدينة "بجاية" في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط ، وعين بلاد بني حماد التي قد تمتد حتى "طبرقة"، وإن بلاد "تلمسان" بامتدادها هي قفل بلاد المغرب، ومعنى هذا أن ما وراء ذلك شرقا هو "المغرب الأقصى" الذي ينتهي عند مضيق الزقاق»[4].

وبالعودة إلى المؤرخ "**ابن عذارى المراكشي**" نجده يحدد بلاد المغرب فيقول:« إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالأسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة "سلا"، وينقسم أقساما فقسم من "الإسكندرية" إلى "إطرابلس"، وهو أكبرها وأقلها عمارة، وقسم من "إطرابلس" وهي "بلاد الجريد"، ويقال أيضا"بلاد الزاب" الأعلى ويلي هذه البلاد بلاد "الزاب الأسفل"، وحدها إلى مدينة "تيهرت" ويليها بلاد المغرب، وهي بلاد "طنجة"، وحدها مدينة "سلا"، وهي آخر المغرب، وإذا جزت سلا وأخذت إلى ناحية الجنوب تركت مغرب الشمس يمنة، وأخذت منها قافلا إلى القبلة فتسمى تلك البلاد بلاد "تامنسا"، ويقال لها أيضا بلاد "السوس الأدنى"، وحدها إلى جبل "درن"، وإذا جزت هذا البلد فعن يمينك بلاد "السوس الأقصى"، ويقال لها بلاد "ماسة"، ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد "السودان"، وهي بلاد الزنج وبلاد الأندلس أيضا من المغرب وداخلة فيه، لاتصالها به، ويليها المجاز الأعظم، الذي يسمى بحر الزقاق وفيه مصب

[1]. هو معاوية بن حديج أو ابن خديج التجيبي أو السّكوني أو الكندي، من الذين شاركوا في فتح مصر، إلى جانب عمرو بن العاص.

[2]. عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري واسمه حسام وهو أخ لعثمان بن عفان من الرضاعة أو أخوه لأمه وكان من القواد الفاتحين.

[3]. موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص15.

[4].نفسه، ص15.

البحر الكبير الذي يسمى المحيط، و يقال له بحر الظلمات، وهذا البحر لا يعلم له ساحل غير الذي عليه بلاد السودان وبلاد المجوس الذين يلون بلاد الأندلس ويصب ماء الزقاق في البحر الرومي، ويقال له بحر الظلمات»[1].

وبهذا التعريف نجد "**بن عذارى**" قد فصل تفصيلا دقيقا في حدود المغرب العربي بداية من حدود "الإسكندرية" إلى غاية مدينة "سلا" في المغرب الأقصى، ثم يضيف بلاد الأندلس إلى تقسيمه إذ كانت تعتبر تابعة إلى المغرب العربي بعد الفتح الإسلامي لها واستقراره في ربوعها.

ولا تقف الاختلافات عند هذه الحدود بل نجد تسميات وتقسيمات أخرى للمغرب وقد اصطلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق وهي:

1-المغرب الأدنى: ويسمى أيضا إفريقية، وكان يشمل جمهورية تونس الحالية وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر.

2-المغرب الأوسط: ويشمل بلاد الجزائر، وتغيرت عواصمها من مكان إلى آخر مثل تيهرت وتلمسان وغيرهما، إلى أن صارت جزائر بني مزغنة وهي مدينة الجزائر الحالية وهي العاصمة حتى اليوم.

3-المغرب الأقصى: ويعتبر امتدادا للمغرب الأوسط لميوعة الفواصل التي بينهما، ولذا نجدهما في معظم العصور التاريخية يكونان دولة واحدة ويعتبر نهر ملوية هو الحد الفاصل بينهما[2].

وخلاصة القول أنه رغم الاختلاف الشديد في رسم حدود فاصلة للمغرب العربي إلا أننا حاولنا من خلال ما سبق أن نقارب حدوده من خلال الجغرافيين والمؤرخين القدامى ومن خلال ما هو واقع حاليا في الجغرافيا الحديثة، وسنعتبر حينها أن المغرب العربي هي دول ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريطانيا، (والصحراء الغربية).

[1] .ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح:ج.س كولان، إ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة ،ط2، بيروت(لبنان)، 1983،ج1، ص5- 6.

[2]. ينظر أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس،مؤسسة الثقافة الجامعية، دط، الأسكندرية (مصر)، دت، ص12- 13.

السكان:

« سكن منطقة إفريقية منذ عصر مبكر عنصر "**الأمازيغ**" و"**الأفارقة**"، فضلا عمن طرأ بعد ذلك من الرومان، والروم، ويهمنا بنوع خاص التعرض للأفارقة وللأمازيغ الذين كانت لهم صلة قديمة بالمنطقة، فالأفارقة هم خليط جنسي فيهم من تجري في عروقه الدماء السامية القرطاجية ومنهم من انتسب إلى السلالة الآرية، أي من بقايا الرومان، والروم، أو من الإيطاليين ...»[1].

« أما العنصر الثاني، فهم الأمازيغ الذين تواطأ مؤرخو الرومان والروم والعرب والأوربيون على تسميتهم بكلمة هجينة تعبر عن مرحلة بدائية من التنظيم الاجتماعي ولا تعني أبدا معنى الهمجية أو الوحشية تلك هي كلمة (البربر)... ويمثلون سكان المغرب الأقدمين وقد ملأوا سهوله وأريافه، وضواحيه، وأمصاره، وجباله، وسلوله، وينتسبون فيما يزعم نسابتهم إلى جدّ أعلى يسمى مازيغ بن كنعان بن... حام»[2].

وبقي الاختلاف قائما إلى يومنا هذا حول معنى كلمة بربر أو حول أصل التسمية التي تطلق على سكان المغرب العربي أهي الأمازيغ أم البربر فهناك من يرى أن « التسمية القديمة لسكان المغرب هي الأمازيغ وهي كلمة بربرية معناها الرجل الحر الخشن أما كلمة بربر التي أطلقت على سكان المغرب فهي كلمة دخيلة barbaros أطلقها عليهم من غلب عليهم من الأمم كالرومان والإغريق والعرب... والظاهر أن كلمة بربر اسم صوت جاء من أن البربر يحدثون أصواتا غير مفهومة تغلب عليها الراء والباء حينما يتكلمون بمعنى أنهم يبربرون»[3].

[1]. موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص16.
[2]. نفسه، ص17.
[3].أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص15 .

ويبدو لنا هذا الرأي يجانب الصواب في كثير، أولا لأنه غير مبرر كفاية إذ كيف يمكن لأمم متباعدة زمانا ومكانا ولغة أن تتواطأ على تسمية واحدة ثم إنه ومن الناحية اللغوية لا نلاحظ وجود أي تكثير في استخدام الراء والباء في اللغة الأمازيغية القديمة مع ما طرأ عليها من تغيير.

ومع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب صار من الطبيعي أن يحدث ذلك التمازج بين البربر والعرب وتختلط أنسابهم، ويصبح بذلك سكان المغرب العربي فسيفساء من الأجناس« ونتيجة طبيعية أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دستور الإسلام وأقنومه، والمصدر الأول لجميع أحكامه وتعاليمه»[1]. وتغلغل الإسلام في الديار المغربية واستأنست به نفوس المغاربة وسكنت إليه، وانتشرت العربية بعد ذلك في ربوعها وصار المغرب العربي جزءا من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

وكون البحث يهتم بمجال التمدين في المغرب العربي فمن الواجب أن نعلم كيف كانت وضعية التمدين آنذاك فنجد أن « البربري قد سكن في بداياته الأولى في مساكن متنقلة تسمى "ماباليا" mapalia أو "ماباليا" mabalia وكانت تصنع من مواد نباتية كالبروق(نوع من القصب اللين) والأسل(الدوم) أو خليطهما، ثم القصب والحشف(من أغشية السنابل) ويصف هيرودتس هذه المساكن بقوله: كانت منازلهم محبوكة من الأسل والبروق وهي سهلة النقل، كما سكن البربري في الكهوف تحفر في قمم الهضاب والتلال»[2].

أما عن التمدين الحقيقي لبلاد المغرب فقد ظهر لأول مرة مع مجيء الفينقيين، وبما أن اتصال هؤلاء بالمنطقة تم لأول مرة على السواحل فإن ذلك يسمح لنا بأن نقول بأن المدن الأولى كانت ساحلية، قبل أن تنتشر في باقي الأرجاء، وقد تطور التمدين مع مجيء القرطاجيين، ثم مع الرومان»[3].

---

[1]. عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دد، ط2، دب،دت، ج1، ص41.

[2]. عبد العزيز غوردو، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدين والسلطة، دار ناشري للنشر الالكتروني، ط2، الكويت،2011، ص17.

[3]. نفسه، ص18.

حدود الأندلس:

وكثيرا ما تلحق الأندلس بالمغرب العربي وشمال إفريقيا، وكثيرون من يربطون ذلك بكون الفاتحين لم يقفوا عند حدود المغرب الأقصى بل دفعهم طموحهم إلى ضم الأندلس إلى الرقعة الإسلامية الواسعة وهذه نظرة قاصرة في الأصل، إذ أنه من أسباب التفكير في فتح الأندلس الطبيعة الجغرافية المتشابهة بين المنطقتين و« من الأمثال المضروبة في أوربة أن جبال البرانس– كما يقول العرب– أو البيرانية pyrénees كما يقول الإفرنج– هي الحد الفاصل بين أوربة وأفريقية،ويقولون : إذا تجاوزت معابر البيرانة فاعلم أنك قد دخلت في إفريقية، وربما يستغرب القارئ هذا القول بعد علمه أن في غرب البرانس(أو البيرانة) بلاد طويلة عريضة هي من أقسام أوربة تتألف منها مملكتان أوربيتان هما إسبانيا والبرتغال، هذا عن الحدود الشمالية للأندلس(...) أما من جهة الشجر والحجر والتراب والماء فإن الجزيرة الأيبيرية المنفصلة عن أوربة بجبال البرانس أشبه بشمالي أفريقية وبغربي آسيا»[1].

« والأندلس: هذه جزيرة في الإقليم الرابع إلى المغرب هذا قول الرازي، وقال صاعد بن أحمد في تأليفه في طبقات الحكماء:معظم الأندلس في الإقليم الخامس، وجانب منها في الرابع،كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية»[2]، « وبلد الأندلس مثلث الشكل(...) يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث،فجنوبها يحيط بها البحر الشامي وجوفيها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر صنف من الروم،(...) وطول الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى هيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل وعرضها ستمائة ميل»[3].

وغالبا ما يرفق تحديد الأندلس جغرافيا بوصف اعتدال جوها وطيبها وحسن مناظرها ومخبرها وقد أبدع الأدباء وتغنى الشعراء في مدحها ما شاء الله أن يتغنوا فهي« بقعة كريمة طيبة التربة

[1]. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،دار الكتب العلمية ط1،بيروت(لبنان)،1417هـ -1997م، مج1، ص 17.

[2]. الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس،مكتبة لبنان، ط2،بيروت،1984، ص32.

[3]. نفسه، ص33.

كثيرة الفواكه، والخيرات دائمة، وبها المدن الكثيرة والقواعد العظيمة وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزئبق واللازورد... والأندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها،أهوازية في عظم جناتها، صينة في جواهر معادنها عدنية في منابع سواحلها وفيها آثار عظيمة لليونان أهل الحكمة وحاملي الفلسفة»[1]نلاحظ من خلال هذا النص كيف جمعت الأندلس محاسن البلدان المتوزعة والمختلفة المواقع والأقاليم في بقعة واحدة حتى ليكاد القارئ لهذه الفقرة يحسب أن كاتبها دخل الجنة من اوسع أبوابها ولا يتعلق الأمر باعتدال الجو فيها فقط بل حتى في ثرواتها الثمينة.

السكان:

أما عن السكان الأندلس فتتفق كتب التاريخ والنسابة أنه قد تعاقب على الأندلس أمم كثيرة « وأول من سكن الأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش –معجمة الشين– بهم سمي المكان، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض»[2]، وكان نتيجة حتمية لذلك الإفساد أن تخرب الأندلس ويباد أهلها والأيام بعد ذلك دول حيث « ابتعث الله لعمارتها الأفارقة، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدة الطويلة قوم منهم أجلاهم ملك إفريقية(...) فنزلوا الأندلس مغتبطين وسكنوها معتمرين، وتوالدوا فيها فكثروا و استوسعوا في عمارة الأرض مابين الساحل الذي أرسوا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة واتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاما إلى أن أهلكهم الله تعالى بعجم رومة، ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش، وباسمه سميت الأندلس إشبانية»[3].

[1]. المقري، أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، دط، بيروت، 1408هـ ، ج1، ص133.
[2].المقري، المرجع السابق، ص133- 134.
[3]. نفسه، ص134.

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

اختلف الفاتحون لبلاد المغرب مثلما اختلفت أهدافهم من وراء الفتح وإن كانت الدراسات تجمع حول الرغبة في نشر الدين الجديد الذي يلزم المسلمين بالجهاد والدعوة إلى الله وحده ونشر قيمه وتعاليمه، كما نجد أن الحملات العسكرية على البلاد المغربية ارتبطت بالرغبة في تأمين حدود الدولة الإسلامية حيث إنه و« لما استقر سلطان العرب في مصر، اضطرت الضرورة الحربية والي مصر عمرو بن العاص إلى التوجه بنظره نحو إقليم برقة، لتأمين قاعدة الفسطاط الجديدة وللحفاظ على المكاسب العربية في مصر»[1]« إذ قام هذا القائد بغزو إقليمي برقة وطرابلس سنة 23هـ لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم والبيزنطيين الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى، إذ كان يخشى أن يحاولوا استعادة مصر من هذا الطريق الغربي»[2]، ولكن طموح عمرو بن العاص لم يتوقف عند حدود التأمين وراح يفكر في توسيع نفوذه في بلاد المغرب العربي« وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم؛ وأكثر ركوبهم الخيل، فأمره بالانصراف عنها فأمر عمرو العسكر بالرحيل»[3]. هذا عن موقف عمر ومبدئه من فتح المغرب الذي كان قائما على التخوف مما هو مجهول وحفاظا على سلامة المسلمين، لكن الرؤى تتغير عند كل خلفاء المسلمين فعندما استشهد عمر بن الخطاب ولي عثمان بن عفانﷺ وسعى إلى فتح بلاد المغرب و« عزل عمرو بن العاص عن مصر، و ولاها عبد الله بن أبي سرح سنة 25 من الهجرة، وفي سنة 27 من الهجرة أمر أمير المؤمنين عثمان عبد الله بن أبي سرح العامري بغزو إفريقية وقام بحملة قوية « اجتاز بها طرابلس واستولى على سفن الروم(...) ثم واصل سيره في إفريقية إلى أن التقى بجيوش البيزنطيين في مكان يسمى سبيطلة 27هـ جنوب غرب

[1]. موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص18.

[2].أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص38.

[3]. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ص8.

القيروان»[1]. وتوقف فتح بن أبي سرح عند هذه الحدود، « ولما ولي الخلافة معاوية بن أبي سفيان قرر إعادة فتح إفريقيا، وعهد بذلك الأمر إلى قائده معاوية بن حديج الكندي 45هـ وتقدم بن حديج بجيوشه، واتخذ في موضع القيروان موقعا ثابتا، ومن هناك أخذ يوجه السرايا إلى مراكز البيزنطيين ، مثال ذلك السرية التي قادها عبد الله بن الزبير إلى المدن الساحلية واستولى فيها على قابس وبنزرت وسوسة»[2].

ثم ابتدأ بعد ذلك التفكير في التمدين والعمران باعتباره الأساس الذي يمكن أن يرسخ وجودهم في المنطقة ويثبت أقدامهم وليس هذا فقط بل كان الإسلام يعتبر دين بناء وتشييد ولم يكن الهدف من التوسع به والدعوة إليه بالقوة المحضة فقط « لكننا نلحظ منذ البداية أن الفتح الإسلامي لم يكن عسكريا خالصا، رغم وجود جانب البداوة فيه، بل كان إضافة لذلك حضريا أيضا: فقد ظهر الإسلام في مدينة (مكة) وتطور بها، وعندما اضطر النبي عليه السلام للهجرة فإنه هاجر إلى مدينة أخرى (يثرب) وليس إلى بادية (...) وأهم شعيرة في الإسلام هي الصلاة، وأفضل الصلوات هي الجمعة التي تقتضي عددا معينا من الناس لإقامتها أي المساجد الكبرى التي عادة ما تكون في الحواضر ، فإذا أضفنا لذلك عددا من الأخلاقيات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالمدينة، أدركنا أن الإسلام دين حضري بامتياز»[3]، كما أن اهتمام المسلمين بالتمدين لا يلغي تماما فكرة وجود المدن كما رأينا سابقا في استيلاء عبد الله بن الزبير على بعض المناطق الساحلية، إذ تتفق كتب التأريخ على وجود المدن الساحلية التي كانت مراكز تجارية خاصة في ظل تواتر الاحتلالات كالبيزنطي وغيره، وهذا ما أدى إلى الفهم الخاطئ للأهداف التي كانت وراء الفتح الإسلامي للمغرب عند الكاهنة التي أمرت بتخريب المدن المغربية لأن المسلمين إنما جاؤوا يسعون إلى احتلال المدن ونهب خيراتها « تقول الرواية العربية وهي تكاد تتفق على الخبر عدا بعض الاختلافات الطفيفة، بأن إفريقية كانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا وقرى متصلة وأن الكاهنة

[1].المرجع السابق، ص38.

[2]. نفسه، ص40.

[3]. عبد العزيز غوردو، جدلية التمدين والسلطة، ص59.

فرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها وهدموا الحصون وقطعوا الأشجار ونهبوا الأموال ذلك أن العرب في اعتقاد الكاهنة إنما يطلبون من إفريقيا المعادن والذهب»[1].

ولأن الإسلام دين حضري كما سبق القول فقد « رأى عقبة في بداية ولايته على إفريقية أن يعمل على توطيد نفوذ المسلمين فيها، وذلك بأن يقيم لهم فيها مدينة عربية تكون بمثابة قاعدة عسكرية في تلك البلاد المغربية، وعلى هذا الأساس اختط مدينة القيروان»[2]، « وبعد عزل عقبة وتولية أبو مهاجر بن دينار سنة 55هـ(...) استطاع بفضل مؤازرة كسيلة أن يجتاح المغرب الأوسط (الجزائر) وأن يحتل مدنه الساحلية حتى مدينة تلمسان»[3]، غير أن بعض المدن قد عوملت بالعكس، فكما كان عقبة حريصا على بناء القيروان لتوطين الفاتحين وترسيخ أقدامهم فيها نجد قائدا آخر عمل على تخريب مدينة لنفس الأسباب؛ أي توطيد التواجد العربي والإسلامي في المنطقة إذ كثيرا مالجأ البربر أو حتى الروم والبيزنطيين إلى المدن والحصون بعد حروبهم مع المسلمين للمنعة والتحصن، ونمثل لذلك بما قام به حسان بن النعمان حين توجه من « القيروان إلى قرطاجنة (قرطاجة) الواقعة على مائة ميل وميل(101) منها وهي على شاطئ البحر وتسمى ترشيش على بعد اثني عشر ميلا من مدينة تونس التي أسست بعد ذلك بقليل، وقد ذكر المالكي أيضا أنه كان في بلد صاحبها من الروم ما لايعلمه إلا الله تعالى وأن حسانا عندما نزل عليها ضيق عليهم وتواقف القوم، واقتتلوا، فقتل رجالهم وفرسانهم فاجتمع رأي الروم... فعبروا إلى صقلية وإلى الأندلس، فدخلها ... فسباها، وغنم مافيها وأرسل إلى ماحولها من العمران... فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها»[4].

فالغاية التي يهدف إليها كل من حسان وعقبة واحدة ولكن اختلفت الطرق في تعاملهم مع المدن، وبغض النظر عما إذا كانت الغاية تبرر الوسيلة لدى حسان تبقى المدينة من أهم العوامل

[1].المرجع السابق، ص 26.

[2]. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص41.

[3]. نفسه، ص42.

[4]. محمد بن عميرة، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر،2008، ص 128.

التي من خلالها يمكننا الحكم على مدى اسقرار المنطقة وتوترها ومدى سيطرة الحاكم عليها من عدمه، ولذلك يسعى المسيطر دائما إلى التمدين أو إلى الاستلاء على المدن وبناء الحصون لتعضيد سلطانه وتقويته.

الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس:

لم يثن صعوبة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب المسلمين عن عزمهم في السعي إلى التوسع والإيغال أكثر فيما جاور المغرب العربي وتوسع طموحهم إلى ماوراء البحر من الجهة الشمالية وعملوا على فتح الأندلس والتوسع فيها وساعدهم في ذلك ضيق المضيق وسهولة العبور إليها والاضطرابات السياسية في المنطقة آنذاك إذ « كانت إسبانيا في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا يجعلها فريسة سهلة لأي فاتح يقبل عليها من الشمال أو الجنوب فإذا نظرنا إلى المجتمع الإسباني في ذلك الوقت، وجدناه منقسما إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض سيطرة تامة، فقد دخل القوط هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد وأقاموا فيها مطمئنين، وأزالوا سلطان الروم وبنوا سلطانهم، وانتحلوا النصرانية دينا، ولكنهم صاروا بها إلى اضطهاد اليهود، فأوسعوهم شرا وإلى احتقار الروم لأنهم مغلوبون»[1]، وكانت اسبانيا في ذلك الحين قد بسطت نفوذها إلى المغرب وبالتحديد إلى سبتة فكان يليان ملكها تابعا لها « وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر، واستعبدوهم، وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال عمارة يسمى يليان، فكان يدين بطاعتهم وبملكهم، وموسى بن نصير أمير المغرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، ومنزله بالقيروان، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ أقطاره، وأثخن في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الإسلام، وخلف مولاه "**طارق بن زياد**" الليثي واليا بطنجة، وكان "**يليان**" ينقم على لذريق ملك القوط»[2]، وكانت تلك النقمة

[1]. بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانحطاط، دار نظير عبود، دط، دب، دت، ص 6-7.

[2]. المقري التلمساني، نفح الطيب، ص232-233 .

على ما تذكر المصادر العربية لأسباب العرض والشرف سببا مباشرا جعلت يليان يعمل على تحريض المسلمين للمجاز إلى الأندلس « فكتب يليان إلى "**موسى بن نصير**" عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له غزو الأندلس، ويصف خصب أرضها، ووفرة أموالها، وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها»[1]، وبدأ "موسى بن نصير" بعد طلب الإذن من الوليد عبد الملك بإرسال السرايا للتعرف على المنطقة كإجراء أولي واحترازي « فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النخعي، في أربعمائة راجل ، ومائة فارس(...) ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالا جسيما وسبيا لم ير موسى وأصحابه مثله حسنا»[2]، وبعد أن استوثق موسى وأيقن إمكانية الفتح للبلاد الأندلسية غير سياسته في ذلك« واستجد عزما في إقحام المسلمين فيها، فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالي»[3].

أما عن العمران فيرى بن خلدون أن الأعاجم في عمومهم يختلفون عن غيرهم « فإن كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا، أهل خيام و ضواعن و قياطن وكنن في الجبال، كان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصار و رساتيق، من بلاد الأندلس...»[4]

لتستقر الأوضاع بعد ذلك نسبيا في المغرب والأندلس على السواء، وانتشر الإسلام في ربوعهما، وتتالت الدول على الحكم وانتشرت اللغة العربية في أصقاع تلك الدول، لاهتمام الولاة والأمراء بتعليمها ونشرها، فأبدعت أقلام المغاربة في الشعر والنثر وعلومهما حتى تميزوا عن غيرهم في كثير من الأبواب والمجالات.

---

[1]. بطرس البستاني، المرجع نفسه، ص8.

[2]. نفسه، ص9.

[3]. المقري التلمساني، المرجع نفسه، ص254.

[4]. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مكتبة القرآن د ط، القاهرة،2006، ص373.

الفصل الأول:هجاء المدن في الأدب العربي القديم

- **المبحث الأول:** الهجاء والمدينة حدود اصطلاحية
  - **1-1** مفهوم الهجاء وتطوره
  - **1-2** مفهوم المدينة وعلاقتها بالهجاء
- **المبحث الثاني:** هجاء المدن في الأدب العربي القديم
  - **2-1** الهجاء الجغرافي الطبيعي
  - **2-2** الهجاء الأخلاقي والاجتماعي

تعددت الأغراض الأدبية وتنوعت في كل ثقافات الشعوب القديمة والحديثة، ولكنها بعد ذلك تشابهت لأنها صدرت كلها من الطبيعة الإنسانية التي جمعت بين البشر على اختلاف مشاربهم وألسنتهم، وكانت منها الأغراض الإيجابية التي نبعت من النظرة التفائلية للحياة كالمدح الصادق والغزل والوصف الجمالي والفخر، ومنها الأغراض السلبية التي كانت تعبر عن نظرة أصحابها التشاؤمية إلى الذات أولاً في بعض الأحيان، وإلى ما حولها في كثير منها، وقد نذكر الرثاء هنا على سبيل التمثيل، فقد برع كثير من الأدباء في تصوير آيات الحزن على الميت والبكاء عليه، كما عمد كثيرون بعد ذلك إلى التفكّر في فلسفة الموت والحياة وتصوير الواقع السوداوي الذي يعيشون فيه ولنا في أبي العلاء المعري خير مثال، إذ أنه قبل أن يدخل في صميم موضوع رثائه لصاحبه(...) يستعرض لنا مجموعة من الآراء التشاؤمية في نظرته للحياة حيث يقول:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي نِيَتِي وَاعْتِقَادِي   نُوحُ بَاكٍ وَلاَ تَرَنُّمُ شَـــــادِ

وشَبِيهٌ صُوتُ النَعِّي إذا قِيسَ   بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَاد

أَبَكَتْ تِلْكُمْ الحَمَامَةُ أَمْ غَنَتْ   عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَــاد[1]

كما يعد غرض الهجاء أيضاً أسلوباً آخر يعبر به عن النفور والازدراء من موقف أو من سلوك معين، أو حتى انتقاماً من شخص مسيء، ليس هذا فقط، بل قد يصبُّ بعض الشعراء جام غضبهم في هجاء ذواتهم أيضاً وأهليهم، ليصبح ذلك خير دليل على أن الشاعر قد بلغ أوج التفكك النفسي، والانحطاط الأخلاقي، وفقد كل معاني الحياة الجميلة والإيجابية فنجد الحطيئة يهجو نفسه بالقول:

أَبَتْ شَفَتَاي اليَّومَ إلا تَكَلُمَا   بِشَرٍ فَمَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُـه

أَرَى لِي وجْهًا شَوَه الله خَلْقَهُ   فَقُبِحَ مِنْ وَجْهٍ وَقُبِحَ حَامِلُـــه[1]

---

[1]. المعري، أبو العلاء ، سقط الزند، دار صادر، دط، بيروت، دت، ص7.

وقد انصب اهتمام البحث على هذا الغرض الأدبي متقصين إياه في مضان الأدب المغربي والأندلسي، على أن يربط بمتغير واحد وهو المدينة. وقبل أن نلج صميمه لابد لنا من وقفة تمعنيه حول مفهوم شامل للهجاء وضروبه وبدايته، ومفهوم المدينة ثم ارتباطهما ببعضهما بعض، لنقدم بعد ذلك صورة موجزة حول هجاء المدن في الأدب العربي القديم و نتعرف على هذا الجانب من الفنون الأدبية التي وجدت بقوة فيه.

[1].الحطيئة، الديوان، رواية وشرح ابن السكيت، دراسة مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت(لبنان)، 1993، ص172.

المبحث الأول: الهجاء والمدينة حدود اصطلاحية

1-1 مفهوم الهجاء وتطوره

مفهوم الهجاء لغة:

تتفق معاجم اللغة العربية على ربط الهجاء بالشعر مطلقاً، فهو الشتيمة بالشعر. وقد جاء في لسان العرب « هجاه يهجوه هجواً وهجاء و تهجاءً، ممدود، شتمه بالشعر وهو خلاف المدح، قال الليث: هو الوقيعة في الأشعار»[1].

وجاء عند الفيروز آبادي أيضاً: « هجاه يهجوه وهجاءً: شتمه بالشعر وهاجيته: هجوته وهجاني. وبينهم أهجية و أهجوّة يتهاجون بها (...) وأهجيت الشعر: وجدته هجاء، و المهتجون المهاجون»[2].

وقد زاد الفيروز آبادي على ابن منظور في كون الهجاء عملية تشاركية بين اثنين أو أكثر انطلاقاً من قوله «هجوته وهجاني» و «بينهما أهجية»، وأبرز مثال على ذلك في أدبنا العربي المهاجاة التي كانت بين بعض الشعراء في العصر العباسي والتي تطورت بعد ذلك إلى ما اصطلح عليه بفن النقائض.

كما أورد صاحب مقاييس اللغة في تعريف الهجاء: «هجو هجاء، إذا وقع فيه بالشعر وذلك الهجو والهجاء: المهاجاة»[3].

والسبب في ربط الهجاء بالشعر أن الأغراض الأدبية، منذ أن بدأ التصنيف فيها صنفت على أساس من الشعر دون الالتفات إلى ما قد يحمله النثر من هذه الأغراض، وأول ما يسبق إلى ذهن المستمع حين يذكر الهجاء الشعر دون غيره وقد نجد في التعاريف الاصطلاحية ما يعاضد هذا التوجه.

---

[1]. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، دط، القاهرة، دت، ص4627.

[2]. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، (لبنان)، 2007، ص1345.

[3]. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تح:عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، دط ، دب، 1989م- 1399هـ، ج 6، ص38.

مفهوم الهجاء اصطلاحاً:

والهجاء في الاصطلاح « فن من فنون الشعر الغنائي، يعبر به الشاعر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء، ويمكن أن نسميه فن الشتمّ والسباب، فهو نقيض المدح، ففي القصيدة الهجائية نجد نقائض الفضائل التي يتغنى بها المدح، فالغدر ضد الوفاء، والبخل ضد الجود، والكذب ضد الصدق، والجبن ضد الشجاعة، والجهل ضد العلم»[1]، ومثلما يقصر هذا التعريف الهجاء على الشعر فإنه يبين مفهومه بالنقيض من باب أن الأشياء بأضدادها تتمايز، فإذا كان الصدق خلة حسنة يمتدح بها الإنسان، فالكذب نقيضها فيشتم بها. نجد مثل هذا المفهوم عند قدامة بن جعفر حيث يقول: « إذا كان الهجاء ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها».[2]

وشعر الهجاء هو من جانب آخر سلاح يشهره الشاعر « وظهور الشعر على أشكال مختلفة، وألوان متباينة وأسلحة شتى، ومنها القول والبيان، فلما عمد الشعراء إلى المبارزة والمناقضة و المنافرة نظروا إلى خصومهم من وجوه عدة وتناولهم من نواح كثيرة فأشفقوا حيناً وأغلظوا أحياناً، حتى كان من أقوالهم ديوان كبير في الأدب العربي يحمل بين دفتيه ضروب الهجاء»[3].

في حين أن هذا السلاح وهذا البيان لا يمكن قصره على الشعر فقط، إذ قد يعمد بعض الأدباء إلى النثر ويوظفون من خلاله غرض الهجاء، ويعرف أدبنا العربي على اختلاف عصوره الكثير من النماذج على هذا النحو، سنتعرف على جانب منها خلال

---

[1]. سراج الدين محمد، موسوعة مبدعون، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، دط، بيروت(لبنان)، دت، ص 6

[2]. أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، دط، بيروت (لبنان)، دت، ص112.

[3]. محمد سامي الدهان، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي6، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1982، ص 05

مراحل البحث فالهجاء إذا أدب غنائي« و واضح أنا قد تعمدنا في التعريف أن لا نجعله شعراً غنائياً فهو أدب غنائي أي أنه شامل للشعر والنثر»[1].

ذلك أن النثر ليس بقاصر على التعبير عن العواطف التي يشعر بها الهجّاء من سخط أو اشمئزاز أو ضغينة أو سخرية وغير ذلك، بل قد يكون النثر في أحايين كثيرة أقدر على التصوير والإبراز دون قيد أو شرط يحد من اندفاع المشاعر ودفق كلمات الهجاء، وإن كان للشعر مزية النظم والموسيقى، « الهجاء غناء أولا وتصوير لعواطف شخصية، وليس الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك ونحن في هذا التعريف نخالف المشهور عند نقاد العرب من وجهين، الوجه الأول أننا نجعله شاملاً للشعر والنثر والمشهور أنه لا يكون إلا شعراً»[2].

وتختلف ضروب الهجاء في القصائد والنصوص على حسب الهاجي والمهجوّ وأساليب الهجاء، « هذه الضروب فيها الوعيد والإنذار وفيها الذم والاحتقار وفيها التندر و الاستهزاء وفيها السخرية والتقريع، وفيها العتب والتأنيب، وتختلف حسب البيئة والعصر والتربية، والعقل والثقافة والعلم»[3].

حيث يسلط "**عمرو بن كلثوم**" سيفه اللغوي الصقيل على "ابن جعفر" في ضرب من الوعيد والإنذار وفيها الذم و الاحتقار:

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بن هِنْدِ تُطِيعُ بِنَا الوُشَاة وتَزْدَرِينَا

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بن هِند تَرَى أَنَا نَكُونُ الأَرْذَلِيـــنَا

تَهَدَّدنَا وَ أَوْعِدْنَا رُوَيـــْدا مَتَى كُنَّا لُأمِك مُقْتَوِيـــنَا[4]

---

[1]. م. محمد حسين، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، دط، دب، دت، ص13

[2] . نفسه، ص13.

[3]. محمد سامي الدهان، فنون الأدب العربي، ص 5.

[4]. عمرو بن كلثوم، الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، دط، بيروت (لبنان)، 1424 هـ_2004م، ص79

كما قد يقصد الهجاء لغرض السخرية من المهجوّ والإضحاك « يطلق هذا التعبير على أي شكل أدبي أداته النقد والفطنة والمزاج الساخر، الذي هدفه المباشر هو الهزء أو السخرية من شخص أو شيء ما»[1].

وهو أحد أنواع التعبير الكوميدي « والكلمة في اليونانية Satiiros وفي اللاتينية Satura و الساتير أحد أنواع التعبير الفني في الكوميديا، والتي بمقتضى عامل التكثيف تفصل نفسها رويداً رويداً عن الضحك، لتصبح نوعاً خاصاً متجاوزاً متعدياً كالفعل المتعدي»[2]. و"**ابن الرومي**" هو خير من يمكن أن يمثل هذا الضرب من ضروب الهجاء إذا لطالما عمد إلى السخرية من مهجويه حين يرسم لهم صوراً كاريكاتورية مضحكة، و لك أن تنظر إليه وهو يصور أحدباً فيقول:

قَصرتْ أخَادعُه وَغَابَ قذاله فَكَأَنَه مُتَرَبِصٌ أَنْ يُصْفَعَا

وكَأَنَّمَا صُفِعْت قَفَاهُ مَـــــرَةٍ وَأَحَسَّ ثَانِيَة لها فَتَجَمَعَا[3]

على أن هذه السخرية وهذا الهجاء قد يكون من ورائه أبعاداً مضمرة غير تلك التي صرح بها الأديب في نصه، فقد يسخط الأديب على شخص أساء خلقا أو من تصرف أدى إلى رذيلة، أو يسخر من حماقات الغير ويكون الهدف من وراء ذلك الإصلاح، ليس بالأسلوب المباشر بل يتخذ لنفسه طريقة أخرى للتعبير عن اعتراضه عن تلك الأساليب غير اللائقة حيث أن« الهجّاء مثل الواعظ يريد أن يحث ويقنع، ولكن موقفه تجاه من يخاطبهم أكثر دقة وصعوبة من موقف الواعظ، يريد الثاني بالدرجة الأولى أن يقبل سامعوه الفضيلة في حين يجب على الأول أن يحمل قراءه على الاتفاق معه في تبين وإدانة ما يعده معيباً في السلوك والناس»[4]، كما أن الهجاء « ليس فقط فن السباب والشتائم،فإذا

---

[1]. ليليان هيرلانديز وآخرون، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، تر: محمد الجورا، دار الحقائق، ط1، بيروت (لبنان)، ص579.

[2]. كمال عيد، فلسفة الأدب والفن ، الشركة التونسية للفنون والرسم، دط ، تونس، أفريل، 1978، ص 163.

[3] . شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف ط12، دب، 2001، ص316.

[4]. آرثر بولارد، موسوعة المصطلح النقدي، تر: عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت (لبنان)، دت، ج2، ص 289.

تأملنا قصيدة الهجاء نفهم دروسا أخلاقية تشجعنا على العمل بعكس هذه الصفات التي استدعت الهجاء، والشاعر بقوة ألفاظه الهجائية يصور لنا وجهين للحقيقة وللحياة وجه الخير ووجه الشر، فهو إذا يرسم لنا مثالاً أعلى يدعونا للتطلع إليه»[1].

وبين الهجاء النابع من الكراهية والنفور الذي لا يهدف له إلا لإفراغ تلك المشاعر والتنفيس عنها في قالب جمالي فني، والهجاء الهادف الذي يكون الغرض منه الإصلاح والتنبيه على الأخطاء والنقائص خط رفيع حتى لا نكاد نفرق بين الوجهين في كثير الأحيان، فالأديب في كلتا الحالتين أحس بالامتعاض من شيء ما فأبت نفسه التكتم عليه، ولذلك فإنه « ليس من اليسير العيش مع الهجاء إنه أكثر وعياً من المألوف بحماقات من حوله وعيوبهم، ولا يقوى أن يمنع نفسه من إظهار ذلك.إنه في موقع صعب، إذ يسهل أن يعرض نفسه لتهمة التفوق الخلقي أو لتهمة الرّياء إذا اعتقد الناس أنهم يرون فيه بعض العيوب التي يدين وجودها في الآخرين وإذا نجا من أمثال هذه التّهم، قد يجابه تهمة الكراهية الشخصية المحض تجاه ضحاياه، فيوصف بأنه تعيس، صغير، دنئ، حاقد»[2]، فالشاعر الهجاء مصلح أو ناقد، وفي كل الأحوال يسعى إلى أن يعبر بأسلوبه الخاص، ومن زاوية نظره دون أن يكون لذلك الإصلاح أو لذلك التعبير عن الغضب أو غيره طريق مباشر، بل بأسلوب فني جمالي، بغض النظر طبعا عن مدى تجسد الفنية ومستواها في ذلك الخطاب.

ولعلنا نخرج في الأخير بتعريف شامل لغرض الهجاء مع السعي إلى عدم إغفال جانب منه فنقول:

الهجاء أدب غنائي الغرض منه تعداد المعايب والنقائص الخلقية والخلقية أو إلصاقها بالمهجو افتراء، يحمل وجوها وضروبا عدة مثل الوعيد والإنذار، والاستهزاء والسخرية، والتأنيب والذم والاحتقار، يكون إما نابعاً من سلطة الكراهية والنفور، أو من

[1]. سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، ص 8.

[2]. آرثر بولارد، موسوعة المصطلح النقدي، ص 289.

الرغبة في الإصلاح والتوجيه، ويعمل الهجّاء على صب تلك المشاعر في أسلوب جمالي إبداعي ويكون موضوعه إما الإنسان أو الجماعة أو غير ذلك.

أولياته وتطوره:

إن وجود فن الهجاء قديم قدم إبداع الإنسان، فقد عرفته كل الحضارات الإنسانية وذلك لارتباط الإبداع بالمشاعر الفطرية لدى البشرية، فكما عرف الإنسان الحب والإعجاب، عرف الكراهية والنفور إن غابت الأولى، وعبر عن كلا الوجهين، وكما تغني بالخير وفضائله وزينه ونادى به، تكالب على الشر وأدانه وأبرز سلبياته ودعا إلى تجنبه ومقته، « فقد عرفت بابل من غير شك في مسرحياتها الدينية شيئاً يشبه الهجاء، وشهدت مصر في قصائدها ألواناً في اللّعنة على سارقي القبور والكنوز، وترنمت الصين والهند وغيرهما بقصائد الهجاء في ذم الشر وهادمي السلم والمعتدين على الأصنام، أما اليونان فقد كانت أعيادها شاهدة على سماع مسرحيات التمثيل القديمة، وفيها ألواح الهجاء في ذم المرأة الفاجرة، أو الآلهة الغادرة، أو اللّص الباغي، أو التاجر البخيل وقد وصل إلينا بقية من هذا الهجاء تدل على ما ضاع »[1].

وقد ربط "**أرسطو**" في "فن الشعر" نشأة فن الهجاء بنشأة الملاهي إذ تعتبر الملاهي أسلوبا من أساليب الهجاء الساخر، كما ذكرنا سابقاً حيث إنه « لا يوجد أقوى من الضحك وسيلة قوية مؤثرة فعالة لحماية الأخلاق»[2]، ويرى أيضاً أن « الشعر ابتدأ في نوعين اثنين كما أن البواعث التي تدعو إليه هي بطبعها تذهب في اتجاهين اثنين فالشعر يبدأ إما كشعر حماسي أو هجائي؟ ومن الحماسي أي شعر الملاحم تنشأ المأساة، ومن الهجائي تنشأ المهزلة ومن الوجهة التاريخية كانت الملاحم من غير شك أقدم من المآسي، والهجاء أقدم من شعر المهازل»[3].

---

[1]. محمد سامي الدهان، فنون الأدب العربي، ص 7- 8.

[2]. كمال عيد، فلسفة الأدب والفن، ص 163.

[3]. أرسطو، نقد الشعر، نقلاً عن أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر وزارة الإعلام، الكويت، 1984، ع:1، م: 15، ص 04.

شعر الهجاء إذا كان نواةً لنشأة أنواع الأشعار الأخرى في الحضارة اليونانية وكان يصطلح عليه بالشعر الأيامبي « وأما الشعر الأيامبي فاسمه مشتق من فعل يوناني معناه (يرمي) أو (يقذف)، ولهذا استعمل هذا الوزن السريع الدافق في الهجاء بحيث نستطيع أن نسميه بالشعر الهجائي، وإن كان استخدم في الملهاة(الكوميديا) ومع ذلك فالشعر التمثيلي كله في الهجاء، كشعر "أرخلوكس"[1]، وشعر "سيمونيدس الأمورجي"[2]، وهما من شعراء القرنين السادس والسابع قبل الميلاد»[3].

هذا عن الحضارة اليونانية الغربية أما عن الحضارة العربية فهي كغيرها عرف فيها الهجاء تطوراً كنظرائه من الأغراض الشعرية المصاحبة له و « وجوده أمر طبيعي مع وجود المديح فحينما وجد أناس يستحقون المديح، وجد آخرون يستحقون الهجاء»[4].

إلا أن ما يسم الهجاء دون غيره من الأغراض الأخرى ارتباطه القوي بطقوس السحر« فمن قبل أن ينحدر الهجاء إلى شعر السخرية والاستهزاء، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري، ومن ثم كان الشاعر إذا تهيأ لإطلاق ذلك اللّعن، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن»[5]، فالشاعر إنّما يسعى إلى أن يكون لبيانه وقع السحر في نفوس من يستمعون إليه وللمظهر في ذلك أثر كبير في بعث جو من الرهبة وإضفاء طابع القداسة على الشعر عامة والهجاء خاصة، ومثال ذلك ما قام به الشاعر "**لبيد**" حين انتدب للهجاء « فقام: وقد دهن أحد شقي رأسه، وأرخى إزاره، وانتعل

[1].أشهر شعراء اليونان في الهجاء، عاش في منتصف القرن السابع ق.م تعزى شهرته عند القدماء إلى براعته التامة في استخدام وزن الأباميوس.

[2]. يشبه في شعره صاحبه ونفس العصر.

[3]. أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، القاهرة، 1943، ج1، ص 164.

[4]. محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، دط، القاهرة، 1963م، ص 418.

[5]. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ، دار المعارف، ط4، القاهرة، دت، ج1، ص 46.

نعلاً واحدة، وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء »[1]، ثم تطور الشعر بعد ذلك في العصر الإسلامي فصارت تفرد له قصائد كاملة لحاجة الإسلام إلى سلاح لغوي يردون به على الكفار الذين كانوا يهاجمون المسلمين والدعوة دون إفحاش أو إقذاع، وقد ورد في الأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه قال لشاعر الإسلام "**حسان بن ثابت**" « أهجوهم وروح القدس معك»[2]، وازداد غرض الهجاء استفحالاً في العهد الأموي بسبب ظهور الأحزاب السياسية المتطاحنة، إذ صار لكل حزب شعراء ينافحون عنه، ويثبتون أحقيته في الحكم والإتباع إن صدقاً أو تملقاً وتزلفاً ويكيلون الشتائم والسباب لمن يناوؤنهم من الأحزاب المعارضة، ثم انتشر في العصر العباسي بعد ذلك ما اصطلح عليه بشعر النقائض، إذ صار شعر الهجاء نوعاً من الترف الإبداعي بعدما عرفت الحياة السياسية والاجتماعية ذلك الترف الذي انعكس على اللغة الشعرية والأدبية.

وبعد هذه الجولة السريعة في مفهوم الهجاء وتطوره ننتقل إلى التعرف على مفهوم المدينة وارتباطها بهذا الغرض الفني.

---

[1]. الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، ط1، دب، 1373هـ- 1954م، ج 1، ص 191 .

[2]. القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، تح: خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، دط،، بيروت(لبنان)، دت، ص52.

1-2 مفهوم المدينة وعلاقتها بالهجاء

حري بنا ونحن بصدد عرض بعض النماذج عن هجاء المدن في الأدب العربي القديم أن نقف قبل ذلك عند حدود مفهوم المدينة.

مفهوم المدينة لغة:

ومصطلح المدينة في حقيقة الأمر من المصطلحات التي تتميز بالزئبقية إذ لا نكاد نجد اتفاقا عاما حول مفهومها وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في أكثر من موقع من مثل قوله تعالى:﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾[1]، وتجمع غالبية التفاسير على أن المقصود من المدينة هنا "مصر" وقد تداخل هذا المصطلح أيضا مع مفاهيم أخرى كالقرية أو الحصن أو المصر أيضا.

فقد ورد في "قاموس المحيط" « مَدَنَ: أقام، فعل ممات، ومنه المدينة للحصن يبنى في أصطمة الأرض، ج: مدائن ومدن، ومدْن ومدن: أتاها، والمدينة الأمة، وستة عشر بلداً، ومدن المدائن تمديناً: مصرها»[2].

وجاء في "لسان العرب" أيضا:« مدن، مدَنَ بالمكان: أقام به، فعل ممات ومنه المدينة، وهي فعيلة، وتجمع على مدائن بالهمز، ومدْن ومدُن (...) والمدينة: الحصن في أصطمتها فهي مدينة والنسبة إليها مديني»[3].

المدينة اصطلاحا:

ومن خلال التعريف اللغوي نحاول أن نقارب مفهوما عاما لمعنى المدينة من خلال الفرق بين المدينة والبادية إذ المدينة تعتمد على البناء والاستقرار في حين أن سكان البوادي ينتقلون من مكان لآخر بحثاً في كل مرة عن مكان أخصب وأصلح، إذ تعتمد معيشتهم على الرعي لذلك فهم يتقصون مواطن الكلأ ولأجل هذا لم تكن البوادي تعرف تلك الكثافة السكانية والتنوع، « احتلت المدينة منذ قدم العصور مكانة خاصة في التاريخ

---

[1]. سورة يس، الآية20.

[2]. الفيروز آبادي، قاموس المحيط، ص1233.

[3]. ابن منظور، لسان العرب، ص4160 .

البشري، فبينما يمثل الريف والبادية مناطق الانتشار السكاني، إذ بالمدن تمثل مراكز الكثافة السكانية»[1].

ولم تكن المدينة تحمل نفس خصائص البادية أيضاً فقد تغيرت بفعل تلك الكثافة السكانية والاستقرار « وتأتي هذه الكثافة السكانية مصحوبة عادة بتنوع العناصر والفئات والطبقات والمواهب والأمزجة... التي يتألف منها البناء البشري للمدينة، مما يترك أثره واضحا في الحياة الاجتماعية داخلها»[2] واستمرارية حياة الإنسان تتأتي له من خلال تعاشره مع بني جنسه والاجتماع بهم، فالإنسان خلق اجتماعياً بطبعه « ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته».[3]

وإذا سلمنا جدلا بأن المدينة جزء من المكان الذي يحمل دلالات كالبيت والقرية والبادية لقلنا بأن الشعراء ارتبطوا بالمكان منذ الجاهلية، وعبروا عن علاقاتهم به من خلال الوقوف على الطلل ومناجاة الربع، كما كتبوا في الحنين إلى الديار والأهالي والشوق إليهم يقول الشاعر:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المَحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى بن جذام[4]

وبالمقابل نفر البعض الآخر من هذه البقاع لما عانوه من سوء معاملة فوجدوا في الهروب من هذه الأماكن وأهليها وسكانها خير عزاء لهم وأصبحت الصحراء والتي تدخل هي الأخرى في معادلة المكان ملجأً آخر لأولئك الصعاليك.

وفي المدينة عرف العربي نوعين من الحياة أيضاً إذ لم يحظ كل من عاش فيها بحياة الرفاهية والرغد فمثلما وجد من استطاع أن يستغل تواجده فيها ويوفر لنفسه ذلك

---

[1]. سعيد عبد الفتاح عاشور، مجلة عالم الفكر، م11، ع1، ص 85.

[2]. نفسه.

[3]. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص 34.

[4]. إمرؤ القيس، حندج بن حجر، الديوان، تح: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية،ط5، بيروت(لبنان)، 2004م، ص150.

النعيم، وجد آخرون لم يطالوا إلا ما يسدون به رمقهم في غالب الأحيان، فاختلفت الطبقات بذلك وعرفت الغني والفقير، والأمير والصانع، والمرموق والكادح...

وخلاصة القول قد « ارتبط الشعراء العرب القدامى بالمكان، ومن ثمة انتشرت لديهم ظاهرة الوقوف على الطلل وأشعار الحنين إلى الدار والأهل، مثلما عرفوا المدن وألفوها، وعانوا حياتها خيراً وشراً فكتبوا فيها وعنها مدحاً وهجاءً»[1].

اختلفت الحياة في المدينة إذا و« كانت المدن مرايا للحياة الجديدة، ولتاريخ الحضارة العربية الإسلامية في حركتها المتقدمة المتغيرة، التي أفرزت لدى العربي رد فعل مزدوج إذ يتحدد الموقف الشعري منها في ثنائية القبول والتبني من جهة، و الرفض والقطيعة من جهة أخرى»[2].

عرف الهجاء من جانب آخر تطوراً في بعض مواضيعه واختلف عن العصر الجاهلي باختلاف طبيعة الحياة المدينية حيث كان في « الجاهلية تنديداً بالمعايب الشخصية للفرد أو احتقاراً لجماعة معينة من الناس ثم تطور ليرتفع عن الأحقاد الشخصية ليطال مشكلات الحياة العامة فكان منه الهجاء السياسي والهجاء الأخلاقي والهجاء الديني»[3]، وكل هذه المواضيع تدخل في إطار ما يسمى بهجاء المدن إذ هي نتاج المدينة، وهو الوجه الآخر للمدينة والحضارة.

إن المتمعن في تاريخ الحضارة العربية يكتشف حتماً التغيير الكبير الذي عرفته هذه الحضارة في العصر العباسي التي بلغت أوج التطور والزهو في هذه الفترة، بعد الصراعات التي شهدها العصر الأموي، والاستقرار السياسي وانفتاح المسلمين على غيرهم جعل الحياة تتطور نحو التحضر والتمدن ولذلك فمن الطبيعي أن يظهر شعر هجاء المدن في هذه الفترة بالذات، يقول "**إبراهيم رماني**" في هذا الصدد « لم يتبلور الموقف من المدينة في

---

[1]. إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب،دط، مصر، 1997، ص 19.

[2]. نفسه، ص 61.

[3]. سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، ص8.

تراثنا الشعري العربي على نحو ناضج وبين إلا في العصر العباسي وذلك عند اكتمال النموذج المجتمعي الحضاري العربي الإسلامي الذي تجلت ملامحه الراقية في الحواضر الزاهرة مثل بغداد ودمشق وغيرهما من المدن والمماليك الأندلسية»[1]، وقد ظهر هجاء المدن كتوجه جديد أفرزته الحضارة العربية وتنوعت أمثلته ولم يظهر المدح فقط، فكما وجدت مدن استحقت المدح وجدت أخرى استحقت الذم والهجاء وعد هذا الاتجاه فناً جديداً ظهر في القرن الثاني هجري.

إن المتأمل في الموروث الأدبي العربي القديم لا يخفي عليه ما أبدعته أقلام فنية في كل الأغراض الأدبية التي تصور المدينة على اختلاف الغرض من التصوير أهو في المدح أو الرثاء بعد سقوط تلك المدن، أو حتى في الهجاء و« كذلك كانت الحضارة، وكذلك كانت الحياة الاجتماعية صورها الشاعر في صورة لا تفرح الصديق ولا تزعج العدو فكانت بارعة الرسم دقيقة التعابير والملامح وذم العيش فيها حتى كره إلينا حبها ووفق في ذلك أعظم توفيق، فكأنه يصف حاضرة عربية ليومنا وقد سقطت فيها الحياة الاجتماعية سقوطا يحسه المعاصرون في كثير من أرجاء البلاد»[2].

وتختلف الأغراض بحسب الأمكنة وبحسب الأمزجة أيضاً، وقد عرف في تاريخ الحضارة العربية نشوء العديد من المدن، وعرفت تلك المدن تطورا واحتضنت آمال وآلام الشعراء والكتاب على اختلافهم، وكانت العلاقات جدلية بين الإنسان والمدينة نتعرف على جانب منها في أدبنا العربي القديم من خلال المبحث التالي.

[1]. إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي، ص 20-21.

[2]. محمد سامي الدهان، فنون الأدب العربي، ص 08.

المبحث الثاني: هجاء المدن في الأدب العربي القديم

سنتطرق في مبحثنا هذا إلى بعض النماذج في هجاء المدن لنتعرف على طبيعة هذا الهجاء، وعلى المدن التي تعرضت له، وعلى بعض الأسباب التي كانت تقف وراء ذلك، على أن ينقسم هذا المبحث إلى مطلبين، الأول منه يتطرق إلى الهجاء الجغرافي الطبيعي والثاني في الهجاء الاجتماعي والأخلاقي.

والمعروف أن الطبيعة تختلف من منطقة إلى أخرى بحسب موقع المدينة. والجو هو الآخر يختلف، فقد تكون بعض المدن في مواقع تأهلها لتكون ذات طبيعة خلابة وجو معتدل وتتوشي بكل ما هو عنوان للجمال من ورود وثمار وأشجار، ومع ذلك تتعرض للهجاء من هذا أو ذاك، ناهيك عن تلك التي تكون بعكس تلك الصفات أصلاً وذات طبيعة قاسية و تضاريس وعرة، وأجواء إمّا ساخنة أو مغبرة أو شديدة البرودة حتى، وتدعو حتماً إلى الهجاء سواءً من أهلها و المقيمين فيها، أو العابر و الضاعن عنها إن كان يملك من الموهبة والاستعداد والطبع أيضاً ما يحمله على ذلك.

ولعل الطبائع والأخلاق من أكثر الأشياء التي تدعو الأديب إلى الكتابة فيها، ومعلوم أن العلاقات الاجتماعية مبنية على أسس أخلاقية تسعى إلى ربط أواصر الحميمية والتعايش الإيجابي بين أفراد المجتمع الواحد، ما يجعل الأديب يبدي شديد استيائه ومرارة امتعاضه من السلوكيات التي تمزق ذاك النسيج الاجتماعي حينا، أو قد يكون المنطلق نفسيا، وموقفا فرديا حينا آخر أدى بالشاعر إلى إصباغ غضبه على كامل المنطقة.

1-2 الهجاء الجغرافي والطبيعي

1. بغـــــــــــداد:

تعتبر "**بغداد**" من أبرز المدن الشرق أوسطية التي عرفت حضارة إسلامية وعربية عريقة وانتشر صيتها حتى وصفت بأنها:« أم الدنيا وسيدة البلاد»[1] وأما موقعها فهي تقع في قلب العراق وأما طولها « فذكر "بطليموس" في كتاب الملحمة المنسوب إليه أن مدينة بغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة داخلة في الإقليم الرابع وقال أبو عون وغيره أنها في الإقليم الثالث»[2].

وبناء مدينة بغداد كان على يد المسلمين، فبعد أن بويع "أبا جعفر المنصور" سنة ست وثلاثين ومائة ، ابتدأ أساس المدينة سنة ست وأربعين ومائة، وسماها مدينة السلام[3].

هي إذا مدينة السلام ولعل كلمة بغداد لها أبعاداً غير التي كان يرمي إليها أبو جعفر المنصور، فهذا المصطلح ينوء عن مفاهيم السلام وهذا ما أشار إليه "**موسى بن عبد الحميد النسائي**" حين قال:« كنت جالساً عند "عبد العزيز بن أبي رواد" فأتاه رجل وقال له من أين أنت؟ فقال له: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد فإن بغ صنم وداد أعطى ولكن قل مدينة السلام»[4].

وقد حظيت مدينة السلام بإعجاب كثير من الأدباء وأطروا مقامها شكروا نعماءها، فهي عند بعضهم «جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق، ودار الخلافة (...) وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية»[5].

---

1. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،1397هـ،1977م، مج1، ص456.

2. نفسه، ص457.

3. ينظر، الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ مدينة السلام، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1422هـ،2001م، ص375.

4. ياقوت الحموي، نفسه، ص456.

5. نفسه، ص461.

إن حضارة بغداد وتطورها وموقعها الاستراتيجي قد جعل منها مدينة المترفين القاصدين رفاهة العيش ونعيمه، وقد استطاعت بذلك أن تسبي عقول كثير من الشعراء فراحوا يصورون متعة العيش فيها وخفضه وهذا الشاعر "**عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى**" يقول:

أَعَايَنْتَ فِي طُول من الأَرْضِ أَو عَرْض   كَبَغْدَاد مِن دَارٍ بِها مَسكَن الخَفْـض

صَفَا العَيشُ في بَغداد واخْضَر عُــودُهُ   وعَيشُ سِواهَا غَيرُ خَفْضٍ وَلاَ غَضِّ

تَطُولُ بِهَا الأَعْمَارُ إنَّ غِذَائــــــــها   مرِئٌ وَبعضُ الأرضِ أَمْرأُ مِن بَعـض

قَضَى رَبُها أَن لا يَمُوتَ خَلِيفَــــــة   بِها، إنَّه مَا شَاءَ يَقْــــــــضِي[1]

ويدعو لها آخر بالسقيا:

سَقَى الله صَوب الغَادِيَات مَحَلَـة   بِبغْدَادَ بين الخلد والكَرْخِ والجِـسر

هي بَلدَة الحَسْنَاءِ خُصَت لِأَهْلِهَا   بِأَشْيَاءَ لَمْ يُجْمَعْنَ مُذْ كن فِي مِصْر

هَوَاءٌ رَقِيقٌ فَي اعْتِدَالٍ وصِحَـــةٍ   ومَاءٌ لَهُ طَعْمٌ أَلَذُ مِنَ الخَمْــــر[2]

وقد تقع المفارقة ويقف الأدباء مواقفاً على طرفي نقيض ولكل أسبابه فبقدر ما حضيت بغداد بمدح بعضهم، أبى البعض الآخر إلا أن يذم جوها ويهجوها سماء وأرضاً وماء، ويصور صعوبة العيش فيها، وقد كتب "**عبد الله بن المعتز**" في ذلك فقال في معرض المقارنة بينها وبين سر « **لا كبلدتكم الوسخة السماء، الومدة الماء والهواء، جوها غبار وأرضها خبار، وماؤها طين، وترابها سرجين وحيطانها نزور، وتشرينها تموز، فكم من شمسها من محترق، وفي ظلها من عرق... »**[3].

---

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، ص460-461.

[2]. نفسه، ص463.

[3]. نفسه، ص465.

فهو الوجه الآخر للمدينة يفصح عنه "**عبد الله بن المعتز**" إذ أن بغداد ليست تلك المدينة الحسناء الطيبة العيش العليلة الهواء في نظره بل هي بلدة وسخة بجوها المغبر ومائها المعكر، وغيرها من الصفات التي تكدر صفو المقيم فيها وليس هذا فقط بل ها هو شاعر آخر يعبر عن أرقه الذي يسببه البراغيث في صورة كاريكاتورية في ضرب من التندر والسخرية حين يشبهه بالبغال:

لَقَدْ طَالَ فِي بَغْدَاد لَيْلِي وَمَنْ يَبت — بِبَغْدَادَ يُصْبِحْ لَيْله غَير رَاقِـــدِ

بِلَادٌ إِذَا وَلَى النَّهَارُ تَنَافَـــــــرَت — بَرَاغِيثُهَا مِنْ بَيْن مَثْنى ووَاحِدِ

دَيَازِجَةٌ شُهْبُ البُطُونِ كَأَنـَّــــهَا — بِغَالُ بَرِيد فِي مَـــــــــــذَاوِدِ[1]

إن المتأمل في تناقض الغرضين ليضع العديد من التساؤلات إزاء الأسباب التي تقف وراء ذم المدينة، برغم من أن الشاعر قد أعطى سبباً مباشراً يبقى السبب من وراء هجاء ابن المعتز غير واضح، ويبقى التناقض صارخاً بين "ماء له طعم ألذ من الخمر وبين ماؤها طين" !!!

2. مصـــــــــــر:

« سميت مصر بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام، وهي من فتوح "عمرو بن العاص" في أيام "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه»[2].

« وأرض مصر أربعون ليلة في مثلها، وطولها من الشجرتين اللتين كانتا بين رفح والعريش إلى أسوان، وعرضها من برقة إلى أيلة، وكانت منازل الفراعنة واسمها باليونانية مقدونية، والمسافة ما بين بغداد إلى مصر خمسمائة وسبعون فرسخاً»[3].

وهي بلاد تاريخية عظيمة ومعقل الحضارة الفرعونية العريقة وموئل هجرة لبعض الأنبياء مثل سيدنا "**موسى**" وآخاه "**هارون**" وسيدنا "**يوسف**" عليهم السلام، وهي المدينة

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، مج1، ص466.

[2]. نفسه، مج5، ص 137.

[3]. نفسه.

الوحيدة التي ذكرت في القرآن باسمها الصريح بعد مكة في عديد من المواضع، غير أنها لم تسلم هي الأخرى من القدح والذم في مناخها، فمن العيوب التي ذكرت عنها كره أهلها للمطر لأنه يتسبب في إتلاف زروعهم على عكس ما هو معروف من الانتفاع بالمطر، يقول "**الجاحظ**" في ذلك:« من عيوب مصر أن المطر مكروه بها قال الله تعالى:﴿ وَهُوَ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشُراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِه﴾[1]، يعني المطر وهم لرحمة الله كارهون وهو لهم غير موافق ولا تزكوا عليه زروعهم»[2].

فعِلَّة مصر إذا هي في هطول المطر الذي هو نعمة في الأصل وفي ذلك يقول أحد الشعراء في تفضيل بغداد عليها وذمها من هذا الجانب:

يَقُولُونَ مِصر أَخْصبُ الأرْضِ كلـــها فَقُلْتُ لَهُم: بغداد أَخْصَبُ مِن مِصــر

ومَا خَصْبُ قَومٍ تجذبُ الأرضُ عِنْدهم بِما فِيه خَصبُ العَالَمِين من القَطْــر

إِذَا بُشِرُوا بالغَيْثِ رِيعت قُلوبهُـــــم كَما رِيعَ فِي الظَلْمَاءِ سَرْب القَطَا الكَدَر[3]

مصر عند هذا الشاعر هي بلد النقيض فالغيث الذي يجيء البلاد القفار فيحيها ويحمل الخير للعباد ترتاع منه قلوب المصريين وتنفر منه !

3. .سجستـــــان:

لم يكتف الشعراء بذم بلدانهم العربية فقط، بل طال الهجاء حتى البلدان التي فتحوها وسجستان إحدى تلك المدن التي هجيت وهي:« بكسر أوله وثانيه وسين أخرى مهملة وتاء مثناة من فوق، وآخره نون، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة (...) وهي جنوبي هراة والرياح فيها لا تسكن أبداً، ولا تزال شديدة تدير رحيهم وطحنهم كله على تلك الرحى»[4]. « وطول ساجستان أربع وستون درجة وربع وعرضها اثنان وثلاثون درجة وسدس، وهي من الإقليم

---

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، مج 5، ص 141

[2]. نفسه.

[3]. نفسه، مج 3 ،ص 190.

[4]. نفسه.

الثالث»[1]. وقد قال "**محمد بن بحر الرهيني**" في مدحها :« سجستان إحدى بلدان المشرق ولم تزل لقاحاً على الضيم ممتنعة من الهضم منفردة بمحاسن، متوحدة بمآثر لم تعرف لغيرها من البلدان، ما في الدنيا سوقة أصح منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة»[2]

أما في ذمها وهو بيت القصيد فقد قال بعضهم:

يَا سِجِستان قَدْ بَلَونَاك دهراً فِي حَرامَيكِ مِن كِلا طَرْفَيْكِ
أَنْتِ لَولَا الأَمِير فِيكِ لَقُلْنـا لَعَنَ الله مَن يَصِيرُ إِلَيْـكِ[3]

وواضح أن الشاعر قد أقام في هذه المدينة طويلا ما جعله يمتحن العيش فيها الذي لم يكن يروقه ويتبين لنا ذلك من خلال الدعاء عليها بعد أن يستثني أميرها، وهذا يجعلنا نخمن بأن المهجو هنا ليس أهل البلد بل كان الشاعر يقصد أشياء أخرى من ذلك.

واستفتح آخر هجاءها بالدعاء عليها فقال:

يَا سِجِستَان لا سَقَتْك السَّحَابُ وعَلَاكِ الخَرَابُ ثُمَّ اليَبَـابُ
أَنْتِ فِي القَرِّ غُصَةٌ وَاكْتِئَـابُ أَنْتِ فِي الصَّيْفِ حَيَةٌ وذُبَـابُ
وَبَلَاءٌ مُوكَّلٌ وُرِيَـــاحُ وَرِمَالٌ كَأَنَهُنَّ سِقَـــابُ
سَاقَكِ الله لِلْأَنَامِ عَذَابــاً وَقَضَى أَنْ يَكُونَ فِيكِ عَـذَابُ[4]

لم يقتصر الشاعر في هذه الأبيات بفصل من الفصول بل جمع كل الأضداد في ذلك فساجستان في الشتاء قارصة تدعو للاكتئاب وفي الصيف تنتشر فيها الحيات والحشرات فضلاً عن الرياح والرمال حتى ليشعر الموجود فيها بكل أنواع العذاب.

4. جرجان:

« بالضم وآخره نون، قال صاحب الزيج طول جرجان ثمانون درجة ونصف وربع، وعرضها ثمان وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة، في الإقليم الخامس(...) مدينة

[1]. ياقوت الحموي، المصدرالسابق.
[2]. نفسه، مج5، ص141.
[3]. نفسه، مج 3، ص120.
[4]. نفسه.

مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وقيل أن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة»[1]

و"**لأبي الغمر**" في وصفها:

هِيَ جَنَةُ الدُّنْيا التي هي سَجَجْ يَرْضَى بِهَا المَحْرُورُ وَالمَقْرُور[2]

وقد عرفت هذه المدينة الذم أيضا فقد قال فيها كافي الكفاة محمد بن الحسن:

نَحْنُ واللهِ يَاجُـــــــــرْ جَانُ فِي خطة وَكَرْبٍ شَدِيد

حَرُهَا يُنْضِجُ الجُلُودَ فَإِنْ هَبَ تْ شَمَالا تَكَدَّرت بِرُكُـــــودِ

كَحَبِيبٍ مُنَافِقٍ كُلَّما هَـــــمَّ بِوصْلٍ أَحَالَه بِالصُّـــــدُودِ[3]

وإن كان محمد بن الحسن قد اكتفى بذم هوائها الساخن وشبه ذلك بعمل الحبيب المنافق الذي يقبل إيهاما ليدبر، نجد شاعر آخر يتحدث عن خشيته من اختلاف هوائها:

أَلَا رُبَّ يَوم لِي بِجُرُجَان أَرِعَـــــــن ظَلَلْتُ لَه مِن حُرْقَة أَتَعَجَـــــــبُ

وأَخْشَى عَلَى نَفْسِي اِخْتِلافَ هَوَائِها ومَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى الله مَهْرِبُ

وما خَيْرُ يَومٍ أَخْرَقٍ مُتَلَـــــــــوِنِ بِبَرِدٍ وَحَرٍ بَعْدَهُ يَتَلَهَّـــــــــــبُ[4]

ولا أشد على الإنسان من اختلاف الهواء بين برد وحر من استقراره، فالاختلاف أكثر تأثيرا على الجسم والمزاج، وأدعى إلى الذم.

5.أرثخشميثن:

وليكتمل معنا النصاب في الهجاء الجغرافي للمدن غير العربية ندرج هذا المثال الأخير لهذه المدينة "أرثخشميثن" وهي:« بالفتح ثم السكون، وثاء مثلثة مفتوحة وخاء

---

1. ياقوت الحموي، المعجم، مج2، ص 119.
2. نفسه، مج2، ص120.
3. نفسه.
4. نفسه مج 1، ص 141.

معجمة مضمومة، وشين ساكنة معجمة، وميم مكسورة وثاء مثلثة مفتوحة، ونون، وربما أسقطت الهمزة من أوله، مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة وافرة، ولأهلها ظاهرة»[1].

يقول "**ياقوت الحموي**" بعدما لقي من متاعب السفر في هذه البلدة ما لقيه:

ذَمَمْنَا رَخْشُمِيثَن، إذْ حَلَلْنَا بِسَاحَتِها لِشِدَّة مَا لَقِينَـــــا

أَتيناها، ونحن ذوو يســـار فعدنا، للشقاوة، مفلسيـــــنا

فكم برداً لقيت بلا ســـــلاح وكم ذلاً، وخسراناً مبينـــــاً

رَأَيْتُ النَّارَ تَرْعَدُ فِيهِ بـــرْدًا وشَمْسُ الأُفْقِ تَحْذَرُ أَنْ تَبِينَا

وثَلجاً تَقْطُرُ العَيْنَانِ مِنْـــهُ وَوَحْلاً يُعْجِزُ الفِيلَ المَتـــِينَا[2]

لا يني الشاعر في تصوير مدى الشقاوة التي عاناها في هذه البلدة التي حملته على الإفلاس بعدما أتاها موسرا، وشر ما لقي منها بردها الذي لم يتسلح له، حتى إنه ليصور في استعارة بليغة صورة النار وهي ترعد من شدة البرد والشمس تخشى الظهور ليبعث في هذه المجسمات روحا كاريكاتورية طريفة، ويختمها بصعوبة السير في أرضها التي أعجزت حتى الفيل الضخم والقوي فيزيد المعنى عمقا.

ولكن سرعان ما يستدرك بعد قوله هذا و يعترف بأن البلد وأهله أحق بالمدح والتقريض وأما أبياته لم تكن سوى نفثة مصدور لما لقيه من العنت في السفر إليها ومشقة.

6. حـــــــران:

« بتشديد الراء، وآخره نون(...) قال بطليموس: طول حران اثنتان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، وهي في الإقليم الرابع(...) وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي على طريق الموصل والشام والروم، قيل سميت بهاران أخي إبراهيمعليه السلام لأنه أول

[1]. نفسه.

1 ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج1، ص141.

من بناها فعربت فقيل حران، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل...»[1].

وقد عهد على هذه المدينة حر الجو و لفح الهجير، يقول "**ابن جبير**" في وصف ذلك:

« بلد لا حسن لديه، ولا يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه، ولا تجد فيه مقيلا، ولا تتنفس فيه إلا نفسا ثقيلا، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة »[2]

موقع هذه المدينة جعل حرها ثقيلا تنعدم فيه المتنزهات وجمال الطبيعة ما حمل الرحالة يعبر عن الوضع تعبيرا دقيقا.

وعلى ذلك يعلق الشاعر المصري "**بن النبيه**" مقتبسا تشبيها من القرآن، ويربط الحرارة في هذه البلدة بالجحيم الذي وقوده الناس والحجارة كما يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَقُوا النَّارَ التِي وَقُودُهَا النَاسُ والحِجَارَة أُعِدَت للكَافِرِين**﴾[3] بقوله:

هَواءُ حَرَانِكُم غَلِيظٌ مُكَدَرٌ مُفْرِطُ الحَـــــــرَارَة

كَأَنَّ أَجْدَاثَهَا جَحِيمٌ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَة[4]

---

[1]. نفسه، مج 2، ص 235.

[2]. ابن جبير، الرحلة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دط، الجزائر، 1988، ص 218.

[3]. سورة البقرة، الآية 24.

[4].ياقوت الحموي، المعجم، مج 2، ص 235.

2-2 الهجاء الأخلاقي والاجتماعي

1. بغـــــــداد:

رأينا فيما سبق كيف كانت "بغداد" محط هجاء جغرافي وطبيعي وكيف صور بعض الأدباء صعوبة التأقلم مع جوها وحشراتها وغيرها من النقم التي تنفّر المقيم فيها أو الزائر ولتكتمل صورة الهجاء سنتطرق في هذه المرة إلى الذم الاجتماعي والأخلاقي، يقول عبد الله بن المعتز بعد ذكر السلبيات الطبيعية والجغرافية :

« **ضيقة الديار، وسيئة الجوار، أهلها ذئاب وكلامهم سباب، وسائلهم محروم، ومالهم مكتوم، ولا يجوز إنفاقه ولا يحل خناقة، حشوشهم مسايل، وطوقهم مزابل، وحيطانهم أخصاص، وبيوتهم أقفاص، ولكل مكروه أجل، وللبقاع دول، والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم**»[1].

تجتمع في أهالي بغداد حسب ابن معتز عديد من الصفات الشنيعة:

أ. سوء الجوار وسوء المعاملة

ب. البخل والامتناع

ج. انعدام النظافة

د. سوء الطالع والخطوب.

ويصور "**ابن جبير**" في رحلته مساوئ "بغداد" في نص طويل نقتطع منه بعضا:

« **وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمّن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا، ولا يغيرون في ذات الله منكرا يظنون أن أسى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله، بمقتضى**

[1].ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 1، ص 465 .

الحديث المأثور في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن لله فرضا فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه...»[1]

ويمكن أن نجمل ما عدده ابن جبير من سلبيات في وجهين هما:

أ. التكبّر والعجب.

ب. تعدي حدود الله والجهل بتعاليم دينهم

ويرحل آخر عنها لاعتبارها موطن الحزن بعد أن يصبّ جام غضبه في أبياته على أهلها الكاره لهم و لسراتهم:

كَفَى حُزْناً والحَمْدُ الله أَنَنـــِي بِبَغْدَادَ قَدْ أَعْيَت عَلَيّ مَذَاهِبِي

أُصَاحِبُ قَوْماً لَا أَلَذُ صِحَابَهُم وآلَفُ قَوْماً لَسْتُ فِيهِمْ بِرَاغِبِ

وَلَمْ أَنْوِ فِي بَغْدَادَ حُباً لِأَهْلِهَا وَلَا إن فِيهَا مُسْتَفَاداً لِطَـالِبِ

سَأَرْحَلُ عَنْهَا قَالِياً لِسُرَاتِـــهَا وأَتْرُكُهَا تَرْكَ المَلُولِ المُجَانِبِ[2]

لم يفد الشاعر لبغداد إلا مكرها غير راغب في ذلك ولا حبا في أهلها، وهو يعترف بذلك صراحة، ويبدو أن الشاعر قد تعرض إلى ما يسوءه من سادة القوم فيها ونقرأ ذلك من خلال البيت الأخير.

ويعطينا آخر خلاصة تجاربه من عيشه في بغداد:

مَا عِنْدَ سُكَانِهَا لمختبـــط خير وَلَا فَرْحَةً لِمَكْـرُوبِ

يَحْتَاجُ بَاغِي المَقَام بَيْنَهم إلَى ثلَاثٍ مِنْ بَعْد تَثْرِيبِ

كُنُوزُ قَارُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ وَعُمر نُوحٍ وصَبْر أَيـُوبِ[3]

هي إذا ضرورات لاستمرارية العيش في "بغداد"، الماديات التي تحفظ ماء الوجه وتعين على الحياة وتحفظ الإنسان من التسول في ظل البخل الذي يتصف به أهلها على حسب الشاعر، وعمراً طويلاً وصبراً جميلاً على كل ذلك.

---

[1]. ابن جبير، الرحلة، ص 190- 191.

[2]. ياقوت الحموي، المعجم، مج1، ص 466.

[3].نفسه، ص 465.

كما يهجوها الشاعر "**سبط التعاويذي**" فيقول:

يَا قَاصِدًا بَغْدَادَ جُزْ عَنْ بَلْــــــــدَةٍ للجُورِ فِيهَا زَخْرَة وعُبَـــــــابُ

إنْ كُنْتَ طَالِبَ حَاجِةٍ فَارْجِعْ فَقَـــدْ سُدَتْ عَلَى الرَاجِي بِهَا الأبـــْوابُ

بَادَت وأَهْلُوهَا مَعِا فَبُيُوتُهُــــــــــم بِبَقَاءِ مَوْلَانَا الوَزِير خَـــــــرَابُ

وَارَتْهُم الأَجْدَاثُ أَحْيَاءٍ تـُـــــــهَا لُ جَنَادِل مِنْ فَوْقِهَا وَتــُــــــرَابُ

فَهُمْ خُلُودٌ فِي مَحَابِسِهِم يُصَبـــُّ ب عَلَيْهِم بَعْدَ العَذَاب عَـــــذَابُ[1]

ويبدو سبب هجاء هّذا الشاعر واضحا حين يقول في قصيدة أخرى:

أَتَرْضَونَ يَا أَهْلَ بَغْدَادَ لِي وَعَنْكُم حَدِيثُ الندى يُسْنَــدُ

بِأَنّي أَرْحَلُ عَنْ أَرْضِكُـم أَجُوبُ البِّلَادَ وَأَسْتَرْفِـــــــدُ

أَلَا رَجُلٌ مِنْكُمْ وَاحِـــــد يُحَرِكُهُ المَجْدُ والسُـــــودُدُ

يُقَلِدُنِي مِنَة يَسْتــَـــرِقُ بِهَا حُرَّ شُكْرِي ويَسْتَعْبـــِدُ[2]

وهو بيت القصيد فالشاعر "**ابن التعاويذي**" لم ينل ما أراده من أهالي "بغداد" ما جعله لا يستنكف على هجائهم ويدعو القاصد إليها وطالب الحاجة بالرحيل عنها.

إن الشهرة التي بلغتها بغداد بعد أن كانت دار الخلافة الإسلامية جعلت كل الناس يرغبون في السفر إليها مع اختلاف الحاجات، غير أن الأمزجة والأهداف قد تختلف، وعلى ذلك المقادير أيضا، فقد يصيب الساعى مغنمه فيسكن إلى ذلك ويرتاح، وقد يخيب فيقسو في حكمه ويعمم، كما قد يصور الأديب فيصيب.

وقبل أن نغادر "**العراق**" نعرج على مدينة أخرى من مدنها وهي:

1. سبط ابن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله، الديوان، تح: د. س مرجليوث، مطابع المقتطف، دط ، مصر،1903، ص47

2. نفسه، ص 39.

2. إربـــــــــل:

« بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، ولام، بوزن إثمد، وطول إربل تسع وستون درجة ونصف، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف وثلث، وهي بين الزابين، تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين(...) ومع سعة هذه المدينة ،فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا»[1].

ويهجو الشاعر "**توشروان البغدادي**" المعروف "بشيطان العراق الضرير" في قصيدة طويلة مدينة "إربل" هذه وهدفه من ذلك التفكه والسخرية حيث يقول:

تَبَاً لِشَيْطَانِي وَمَا سَـوَّلَا لأنَّهُ أَنْزَلَنِي إِرْبِـــــــلاَ

نَزَلْتُهَا فِي يَوْمِ نَحْسٍ فَمَا شَكَكْتُ إني نَازِلٌ كَرْبَلَا

وَقُلْتُ مَا أَخْطَا الذِي مَثَّلَا بِإِرْبِلَ، إِذْ قَالَ بَيْتُ الخَلَا

هَذَا وَفِي البَازَارِ قَـوْمٌ إِذَا عَايَنْتَهُم عَايَنْتَ أَهْلَ البَلَا[2]

_ثم يعود الشاعر وشيطانه مرة أخرى في صورة أسلوب استعراضي آخر ليتوب عما قاله ويعتذر لرئيس البلاد عما صدر منه:

قَدْ تَابَ شَيْطَانِي وَقَدْ قَالَ لِي لا عُدْتُ أَهجُو بَعْدَهَا إِرْبِلَا

كَيْفَ وَقَدْ عَايَنْتُ فِي صَدْرِهَا صَدْرٍا رَئِيسًا سَيدا مُقْبِـــلاَ[3]

واضح أن الشاعر كان يسعى وراء غرض لم ينله فحمله على هجاء هذه المدينة ولكنه سرعان ما استدرك هجاءه بالاعتذار والمدح إما خوفا أو طمعا مرة أخرى.

كما يهجوها الشاعر الكناني حيث يقول:

إِرْبِلِ دَارُ الفِسْقِ حَقًا فَلَا يَعْتَمِدُ العَاقِلُ تَعْزِيزَهَـــــا

لَوْ لَمْ تَكُنْ دَارَ فِسْقٍ لَمَا أَصْبَحَ بَيْتُ النَّارِ دِهْلِيزُهَا[4]

---

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، مج 1، ص 137.

[2]. نفسه، ص 139.

[3]. نفسه.

[4].ياقوت الحموي،المصدر السابق، ص 523.

و"**بيت النار**" هي إحدى القرى القريبة من المدينة ولذلك ربط الشاعر بين معنى هذه القرية وبين هجاء مدينة إربل.

3. مصـــــــــر:

مصر هي الأخرى لم تسلم من الذم في أخلاق أهلها، ولعله لا يغيب عن أذهاننا تواجد هذا الذم منذ العصر العباسي ونقصد بالضبط منذ أشعار "**المتنبي**"، وهو واحد من أولئك الذين هجوها لغايات معينة لم يبلغها فيها فهو يقول في أهلها والقصد أن يلفح "كافور الإخشيدي" بأبيات هجاء مقذع بعد ذلك:

إِنِي نَزَلْت بِكَذَا بِينَ ضَيْفُهُـــــــــم عَنْ القِرَى وعَنْ التِّرْحَالِ مَحْدُودِ
جُودُ الرِّجَالِ مِن الأَيْدِ وَجُودُهـــــم مِن اللِّسَانِ فَلاَ كَانُوا وَلَا الجُـودُ
مَا يَقْبِضُ المَوْتُ نَفسَاً مِن نُفُوسِهم إلاّ وَكَانَ فِي يَدِهِ مِن نَتْنِهَا عُودُ
أَكُلَمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُوءِ سَيـــــــده أو خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِـــيدُ[1]

هذه هي مصر في عين المتنبي بعد أن ضاقت به السبل نحو أمجاد كان يرومها من سيدها، وبعد أن أطال في مدحه والتزلف إليه وباء بخيبة أمل كسرت مجاذيفه وأرجعته القهقرى إلى الهجاء والذم المقذع الذي لا يخص به "كافور" فقط بل يصبغه على كل المصريين الذين رضوا بالذل والمهانة حسبه وولوا عبداً أسوداً على شؤون رعيتهم، لدرجة أن شبه الموت بشخص إذا أطبق على نفس من نفوسهم تتكدر يده برائحتها الكريهة.

وهذا شاعر آخر من غير أهلها لا يرى غاية من مصر سوى هجاءها بعد أن زارها وهو من "البندنيجين":

قَدْ فَظَّلُوا جَهْلاً مُقَطَمَهُم عَلَـى بَيْتٍ بِمَكَةَ لِلإِلَهِ عَتِيـــــق
لمَصَارِعٍ لَمْ يَبْقَ فِي أَجْدَاثِهِـــم مِنْهُمْ صَدَى بِرٍ وَلَا صَدِيــقِ
إِنَّ هَمَّ فَاعِلُهُمْ غَيْرُ مُوَفـــــقٍ أَوْ قَالَ قَائِلُهُم فَغَيْرُ صَدُوقِ
شَيْخُ الظَّلَالِ وحِزْبُ كُل مُنَافِقِ ومَضَارِعٌ لِلْبَغْي والتَنْفِـــيقِ

[1]. المتنبي، أحمد بن الحسين، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر،دط، بيروت، 1403هـ – 1983، ص507

أَخْلاَقُ فِرْعَونَ اللَّعِينَة فِيهِـــم والقَوْلُ بِالتَشْبِيهِ والمَخْلُـوقِ

لَوْلَا اِعْتزَالٌ فِيهِم وَتَرَفُـــــضٍ مِن عُصْبَةٍ لَدَعَوْتُ بِالتَغْرِيقِ[1]

لا يتوقف هجاء الشاعر لأهل "مصر" عند حدود الهجاء الأخلاقي من انعدام الصدق والبغي والنفاق، بل يتعدى ذلك إلى ما هو أشد حين يتعرض لمذاهبهم وإيمانهم بالله الذي يبدأ بتفضيل بلدانهم على بيت الله الذي تشتاقه نفس كل مسلم، وإن ارتبط روحاً وأصلاً بموطنه، إلا أن الانتماء الإسلامي يجعل روح كل مسلم تحن إلى تلك البقاع، ويبدو الشاعر لم يوفق كثيراً في ذكر هذا المعنى، فمن الطبيعي أن يفضل الإنسان موطنه الأصلي إلا إن ارتبط هذا التفضيل بخصلة أخرى تجعل هذا المصري ينفر من بيت الله. وينتهي إلى لعن مذاهبهم الإسلامية التي لا تتوافق على ما يبدو ومعتقدات الشاعر.

4. أرثخشميثن:

نعود مرة أخرى بعد أن تطرقنا إلى الهجاء الجغرافي لهذه المدينة لننظر فيما قاله الشاعر مرة أخرى في أهل هذه المدينة:

وكَالْأَنْعَامِ أهْلاً فِي كَـــــلَامٍ وفِي سَمْت وأفعالاً وديـــناً

إذا خَاطَبْتَهُم قَالُو: بَخْسَـــاً وكَمْ مِن غُصَةٍ قَدْ جَرَّعُـونَا

فَأَخْرِجْنَا أيَا رَبَاهُ ! مِنْهَـــــا فَإنْ عُدْنَا فإنَا ظَالِمُـــــونَا

ولَيْسَ الشَّأْنُ فِي هَذَا ولَكِـن عَجِيبٌ أنْ نَجَوْنَا سَالِمِيـنَا

ولَيْسَتُ بِيَائِسٍ والله أرْجُـــو بُعَيدَ العُسر مِن يُسْرٍ يَلِينَا[2]

يشبه الشاعر أهل هذه البلدة بالأنعام، وليس أشد على الإنسان من إهانة بمثل هذا التشبيه، ويعدد مواطن وجه التشبيه في السمت، والأفعال، والدين، ثم يختم قصيدته بالدعاء بالخروج منها فإن اليسر سيعقبه إن خرج حتماً.

---

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، مج 5، ص 142.

[2]. نفسه، مج 1، ص 141.

4. بخـــــارى:

جاء في "معجم البلدان" حول هذه المدينة :« بخارى: بالضم: من أعظم مدن ما وراء النهر و أجلها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانية، قال بطليموس في كتاب الملحمة: طولها سبع وثمانون درجة وعرضها إحدى وأربعون درجة»[1]، وكثيراً ما ذمت هذه المدينة بسبب انعدام النظافة فيها والقذارة ويطالعنا المعجم بمجموعة من الأبيات الشعرية التي كانت تستغل اسم المدينة بالتصحيف حتى يعبر الهجاؤون عن سخطهم من ذلك.

و"**ابن عنين**"[2] من الشعراء الذين هجوا هذه المدينة حيث قال:

آلَيْتُ لَا آتِي بُخَارَي بَعْدَهـــا ولَو أنَّهَا فِي الأرْضِ دَارُ الخُلُودُ

فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا حَنِيفاً مُسْلِمَاً ورَحَلْتُ عَنْهَا بِاعْتِقَادٍ يَهُـــودِي[3]

واضح وجه الذم عند "**ابن عنين**" في كون هذه البلدة غير متمسكة بتعاليم إسلامه ولذلك– ومن باب المبالغة في الأمر– فقد كاد تواجده فيها يزيغ به عن جادة الطريق وليس هذا فقط بل يضيف:

لا رَعَى الله لَيْلَتِي فِي بُخَـــــارَى ذِكْرُهَا مَا حَيِيتُ حَشُو ضَمِيرِي

طَرَقَتْنِي الضُيُوفُ فِيهَا وَقَد بِـــــ تُ مِن الجُوعِ فِي عَذَابِ السَعِيرِ

لَيْسَ فِي مَنْزِلِي سِوَى قَحْفُ إِبْرِيـ ق وبَاقِي قِطْعَة مِن حَصِيـــــرِ

أَتَقَرَى التُجَارَ فِي سَائِرِ الحَـــــا نَاتِ ظُهْراً عِنْدَ اسْتِوَاءِ القُــدُورِ

فَإِذَا فَاتَنِي كَرِيمٌ يُغَـــــــــــذِ نِي تَعَيشت قُرْصَةً مِن شَعِيـــرِ[4]

يسرد لنا الشاعر في أسلوب حكائي شعري وقائع ليلة عسيرة أمضاها في "بخارى" وتتمثل ذروة ألمه حين يزوره الضيوف وليس معه من الزاد ما يسد رمقه هو فضلاً عنهم،

---

[1]. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 353.

[2].ابن عنين المذكور كان هجاء، وهو صاحب "مقراض الأعراض".

[3]. ابن عنين، الديوان، نقلا عن، مشهور الحبازي، شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة ، دار الآداب جامعة القدس، دط ، فلسطين، دت، ص211.

[4]. ابن عنين، المصدر السابق، ص 144-145.

ثم يصور الفقر المدقع أيضاَ إذ لا يملك في بيته ذاك سوى إبريق وقطعة عصير، ثم إنه لم ينل من تتبعه التجار وقت استواء القدور شيئاً مما يتقوت منه، وفي هذه الأبيات إشارة غير مباشرة إلى بخل أهل هذه البلدة وعدم إكرامهم لضيوفهم.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على بعض النماذج التي وردت في هجاء المدن في الأدب العربي القديم نستخلص في الأخير أن ذم المدن لم يكن يقتصر على البلدان العربية فقط بل امتد ليشمل غيرها من البلدان التي فتحها المسلمون أو حتى التي زاروها عرضا أو من وراء غرض ما، كما اختلف المهجو أيضا فقد يكون عابر سبيل أو زائرا لم يرقه المكان، أو لم يصب مبتغاه. وكما هجا الأديب الجو من حر وقر ورياح، نظر إلى العلاقات والأخلاق و المعاملات السلبية كالبخل وعدم إكرام الضيف وسوء المعاملة... بعين الحانق وأفرغها في شعره أو نثره ومن خلال هذا نقول أن الهجاء لم يقتصر على المجال الشعري فقط، بل أخذ وجها نثريا أيضا استطاع من خلاله الكتّاب أن يبدعوا في هذا المجال خاصة في فن الرحلة الذي يسمح للأديب بالتجول في البلدان ورصد سلبياتها والتعرف على معاملات أهلها وأخلاقهم وحتى عاداتهم وتقاليدهم.

الفصل الثاني: هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي

- **المبحث الأول:** هجاء المدن المغربية
  - 1-1 هجاء المدن المغربية نثرا (الرحلة المغربية)
  - 1-2 هجاء المدن المغربية شعرا
- **المبحث الثاني:** هجاء المدن الأندلسية
  - 2-1 هجاء المدن الأندلسية نثرا (معيار الاختيار)
  - 2-2 هجاء المدن الأندلسية شعراً

تعتبر "**الرحلة**" من أهم الفنون الأدبية التي نبغ فيها المغاربة وتميزوا بها، حيث إنهم كانوا يعتبرون المشرق محجة دينية وعلمية يقصدونه، فضلا عن أن الدين الإسلامي في عمومه يحث على الرحلة ويدعو إليها كما في قوله تعالى ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الاَرضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ الله يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الاخِرَة إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير** ﴾[1] وغيرها من الآيات التي تدعو إلى السير والحركة والاعتبار من الأمم السابقة « إن هذا الفن يرقى إلى القمة في الإبداع ويزداد اتساعاً وخصوبة في الغرب الإسلامي عند الأندلسيين والمغاربة بما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الإطلاع والبحث»[2]، وبرز في الساحة الأدبية عديد من الرحالة الذين دونوا رحلاتهم ورسموا صوراً حية حول المدن وأهلها، ولم يكن المغاربة يصفون الحياة الاجتماعية والطبيعية والثقافية عن المدن التي يقصدونها فقط، بل يسجلون ملاحظاتهم عن كل البلدان والقرى وحتى الشعاب التي كانوا يمرون بها بداية من نقطة انطلاقهم إلى منتهاها، ولم يغفل الرحالة جانباً من جوانب تلك المدن إلا أن يهتم بما يشبع نهمه في ثقافة معينة كأن يهتم بجانب العمران مثلاً، أو بالجانب التاريخي للمدينة، ولم يكن الرحالة بعد ذلك يتورع عن ذكر مساوئ بعضها، وخاصة إذا لم يلق فيها من حسن الاستضافة والإكرام ما به يريح خاطره وبدنه من وعثاء السفر، أو تساء معاملته بأي شكل من الأشكال أو يستثقل الجو والطبيعة فيها.

كما تعتبر "**المقامة**" من الفنون التي تحمل بعض خصوصيات فن الرحلة إذ أنها تصور تنقل البطل من مدينة إلى أخرى، فضلا عن كونها فن من فنون النقد الاجتماعي، وفي هذين الفنين إضافة إلى الشعر سنميط اللثام في هذا الفصل عن موضوع هجاء المدن المغربية والأندلسية.

---

[1]. سورة العنكبوت، الآية20.

[2]. الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، د ط، الرباط، دت، ج1، ص 47.

المبحث الأول: هجاء المدن المغربية

1-1 هجاء المدن المغربية نثرا (رحلة العبدري)

لم تلق رحلة "**العبدري**" من اهتمام الدارسين ما لقيته غيرها من الرحلات المغربية، إذ لا نكاد نسمع عنها الكثير أمام فطاحل الرحلة الأدبية أمثال "**ابن جبير**" و"**ابن بطوطة**"، بالرغم مما تحمله من أهمية في نقل الواقع المعيش في فترة من الفترات التاريخية للمغرب العربي. وقبل أن نعرّف بهذا الرحالة المغربي نفتتح المطلب بتعريف موجز لفن الرحلة الأدبي.

تعريف الرحلة:

ورد في معجم لسان العرب "**لابن منظور**" « الترحل والارتحال: الانتقال وهو الرحلة، والرحلة: اسم للارتحال للمسير، يقال: دنت رحلتنا، ورحل فلان وارتحل بمعنى»[1] وإذا توقفنا عند حدود التعريف اللغوي لاعتبرنا أن كل انتقال من مكان إلى آخر يعد في عرف التعريف اللغوي رحلة لكن المقصود به البحث هو الرحلة الأدبية التي ستختلف حتماً من خلال التعريف الاصطلاحي الآتي.

تعريفها اصطلاحاً:

وأساس التعريف الاصطلاحي لفن أدب الرحلة هو التدوين إذ تنتقل الرحلة من فعل التنقل إلى فعل الكتابة والتقييد وقد ورد في تعريفها الاصطلاحي على أنها « مجموعة من الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين هذا في آن واحد»[2].

---

[1]. ابن منظور، لسان العرب، ج 03، ص1611.

[2]. سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، دط، عين مليلة (الجزائر)، 2009، ص 31.

ومن هذا المنطلق سيعتبر الوصف في الرحلة من أهم مكوناتها، وسيختلف الوصف من منطقة إلى أخرى ومن مجال إلى آخر، من وصف للعمران والطبيعة والآثار من الوجهة المادية، ووصف للسلوك والمعاملات وحتى العادات والتقاليد من الوجهة الأخرى، ويتخلل هذا الوصف طبعاً السرد الذي يعتبر هو الآخر عمودا من أعمدة أدب الرحلة، فالوصف والسرد قد يحملان غرض الهجاء في بعض الأحيان، ولذاتية الكاتب في ذلك دور كبير إذ يؤكد "**محمد الفاسي**" في معرض تقديمه لرحلة "**المكناسي**" مثلاً:« أن أساس فن الرحلات شخص المؤلف وأنيته، ووصفه، لما يعرض له في سفره، وذكر الإحساسات التي يشعر بها أمام المناظر التي يمر بها، مع اطلاعنا على أحوال البلاد التي يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم وأفكارهم، وهو في كل هذا يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره الخاصة في كل مسألة»[1] وتتداخل بذلك نظرة الكاتب مع ما هو واقع في أصل المدينة وخاصة ما لم يرتبط الوصف أو السرد بحقائق تدحض دعوى الرحالة، أو تبين صدق ما ذكره في رحلته من عدمه كالوقائع التاريخية على سبيل التمثيل.

تعريف الرحلة وصاحبها:

اختلفت كتب الترجمة في البلد الذي ينتمي إليه صاحب الرحلة أهو أندلسي أم مغربي[2]؟، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أنه صاحب "**الرحلة المغربية**" التي يصور فيها رحلته إلى الحج وهو على إجماعهم « محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحاحي»[3] ويفصل "**كراتشوفسكي**" في نسبه حين يورد في كتابه « أبو محمد العبدري الذي ينتمي في الأصل إلى مدينة **بلنسية** Valencia على ما يبدو، وتشير النسبة إلى أنه ينحدر من صلب بني عبد الدار من بني قصي وهذا الأخير هو الذي تنسب إليه أسطورة

---

[1]. سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 34.

[2]. ينظر كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 428، وعمر فروخ في تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 401

[3]. السملالي، العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من أعلام، ، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1413هـ، 1993م، ج 4، ص 287، ينظر أيضا: المكناسي، أحمد بن قاضي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ، دار المنصور للطباعة والوراقة، دط، الرباط،1973 ، ص 286.

توحيد قبيلة قريش، أما سيرة حياة **العبدري** فلا نكاد نعلم عنها شيئاً، ويلوح أنه كان على صلة ما بمراكش لأنه بدأ أسفاره من موغادور تاركاً أسرته مع قبيلة حاحة»[1]، ولهذا السبب نجده ينسب في كثير من التعريفات إلى "**حاحة**"، وعلى كل حال فإن أغلب التعريفات التي تعرف "**بالعبدري**" إنما كانت تستقي مادتها من الرحلة عينها، مما أورده هو عن نفسه كما يورد ذلك د."**إبراهيم علي كردي**".[2] وقد خلف **العبدري** مؤلفاً وحيداً على ما يُذكر وهو "**الرحلة المغربية**" والتي تعد رحلة غنية يصف فيها صاحبها المدن التي زارها ويسرد بعض الأحداث التي وقعت له أما عن مسارها « وفي البداية سارت الرحلة ببطء في شمال إفريقيا وتوقف الرحالة خلالها وقفات طويلة بالمدن الكبرى ومن "مصر" رافق قافلة الحج لأداء الفريضة، ثم رجع إلى "مصر" عن طريق فلسطين فأمضى بعض الوقت "بالقاهرة" و"الإسكندرية" وغادرها إلى وطنه ماراً في طريقه "بتلمسان" و "فاس" و "مكناسة" حتى بلغ "أزمور" على المحيط»[3] ، كما يذكر "**كراتشكوفسكي**" أيضا أن الرحالة قد اتخذ البر طريقاً له دون البحر معللاً ذلك بكراهة ركوب البحر لدى العرب، إلا أننا قد ننظر إلى ذلك من جانب آخر ونرجح أن ركوب البحر إنما يذهب بالغرض من الرحلة الذي كان ينشده وهو التعرف على البلدان وذكر المرور بها والتعريف بها وشخصياتها والسماع من علمائها، مما يمنح الرحلة قيمة توثيقية سواء أكانت تاريخية أو جغرافية أو علمية... وهذا ما لا يمكن أن يوفره ركوب البحر.

ويصرح "**العبدري**" بالغرض من الرحلة وفي خلال ذلك يوضح جلياً أنه سيذكر بعض البلدان وأحوالها بالهجاء وذكر السلبيات حيث يقول:« وبعد فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده في حين الرحلة إلى بلاد الشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القطان حسبما أدركه الحس والعيان، وأذكر مع ذلك

---

[1]. يوليانوفتش أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، دب، 1957، ج1، ص 367.

[2]. إبراهيم علي كردي، الرحالة العبدري، كلية المعلمين، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، دت، ص1.

[3]. كراتشكوفسكي، نفسه، ج1، ص 370.

ما استفدته من خبر، وأنشدته من درر، وأثبت في خلال ذلك من نظمي ما يتغلغل إليه الكلام، وأضيف إلى ذلك ما يضطر له البيان مثبتاً في كل رسم بعض الأحاديث التي رويتها والآثار التي وعيتها وأختم ذلك بقصيدة وعظية أسرد فيها الرحلة سرداً وأبرزها من نسج فكري برداً، وربما حمل الامتعاض لحزب الفضائل عن فرط تحزب وتألب على فئة الرذائل، وقد يردع المسيء عن إساءته ما يرى ويسمع من مساءته»[1]. يريد الرحالة إذا أن لا يغض الطرف عن مساوئ البلدان التي سيزورها ويحمله على ذلك تعصبه للفضائل وتألبه على الرذائل، وبذلك لم تخلو كثير من المدن التي زارها من الذم والتحقير قد يخرج في كثير، حسبنا، وكما سنرى عن هدف الإصلاح الذي يرنوا إليه، إلى أهداف أخرى يبقى البحث في أسبابها مفتوحاً، وسنقدم من خلال الإطلالة التالية بعض المدن المخصوصة بالذم في الرحلة.

1. تلمسان:

تعد "**تلمسان**" من أعرق المدن المغربية ويصطلح على تسميتها " **بلؤلؤة المغرب الكبير**"وهي من أكبر مدن الجزائر حالياً وفي ضبط اسمها يقول "**الحمويّ**":« تلمسان بكسرتين ، وسكون الميم وسين مهملة وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام»[2]، أما عن سبب التسمية وأصل المدينة، فيقال أن:« تلمسان مشتقة من كلمة " تلمسى" باللهجة المحلية وهي تعني المكان الذي استقر فيه الماء، وهناك من يرى أن أصل تلمسان قريتان، الأولى هي "أغادير" التي أسسها مولاي "إدريس الأكبر" على أنقاض معسكر روماني، والثانية هي "تاقرارت" التي أسسها "يوسف بن تاشفين" ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان»[3] كما يذكرها "القزويني" على أساس أنها قرية قديمة بالمغرب « ذكروا أنها القرية

[1]. السملالي، الإعلام، ج ص287.

[2]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 44.

[3]. أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة للنشر، دط، الجزائر، 2007، ص85.

التي ذكرها الله تعالى في قصة "الخضر" و"موسى"﴿ **فَانْطَلَقَا حَتَى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اِسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوا أَنْ يُضَيِفُوهُما فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ**﴾[1]».[2]

يسرد لنا "**العبدري**" حوادث شاهدها في تلمسان ويصدّر تلك الأحداث بوصف جرئ للأحوال السيئة التي آلت إليها المدينة حيث يقول:

« وصلنا مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت به زمانة الزمان وأخلت به حوادث الحدثان فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للظمئان بلالة »[3]

ويبدو أن "**العبدري**" كان يتشوق الوصول إلى تلمسان إلى أن وجدها على غير ما أمل فيه، أو على غير ما سمع عنها إذ يذكر أن الزمان والحوادث أفسداها فلم يجد ما يشفي غليله منها.

ثم يعقب ذلك بسرد الحادثة فيقول أيضاً:

« وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها فأعطاهم ديناراً واحداً وأغرب هذا ما شاهدته من منصور صاحب مليكش أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم، واحتفل في السلام عليهم ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار هؤلاء ضيفان الله من يحمل منهم إلى بيته واحداً، وجعل يكرر ذلك كما يصنع المدرون أهل المدر فلما لم يجبه أحد منهم ولى عنهم و وراءه جمع كثيف من الفرسان وهو سلطان تلك النواحي »[4]

---

[1]. سورة الكهف، الآية 77.

[2]. إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص136.

[3]. العبدري، الرحلة المغربية، تح: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، بونة ط1، 1428هـ-2007م، ص27.

[4]. العبدري، السابق، ص 28.

وبالرغم من أن الرجل كان سلطان تلك النواحي إلا أنه لم يكن له أي أثر لكلامه ولدعوته لرعيته لإكرام ضيوفهم، وكيف يستجيبون وكبيرهم بعد لا يفعل؟! وقد تطابقت الحادثة والآية المذكورة سابقاً، فهل كان صاحب الرحلة على علم بأنها القرية نفسها فأراد أن يثبت على أهلها خلق البخل ويعممه؟! أم أن الحادثة وقعت فعلاً؟ والعهدة على القائل.

ثم ينتقل بعد ذلك في الوصف مرة أخرى لينتقل بعد ذلك إلى حادثتين أراد أن يذم من خلالهما خلقاً آخر في أهالي المدينة حيث يورد:

« وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة، ولكنها مساكن ومنازل بغير نازل ومعاهد أقفرت من متعاهد ، تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع وترثي لها فتندب الحمام الوقع، إن نزل بها مستضيف قرته بؤسا، أو حل فيها ضعيف كسته من رداء الردى لبوسا، وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاصت أنهاره فازدحم على التمادي، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله و منهل جف وشله، وقد حضرت بها مدرسا مذكورا عندهم يقرأ عليه باب التوكيد من الجمل، فسمعته يقول كلا للمذكرين وكلتا للمذكرتين، وأعربوا قول ابن دريد:(هم الذين جرعوا من ما حلوا) بأن هم مبتدأ والذين مبتدأ ثان وجرعوا خبره والجملة في موضع خبر، وهذا قليل من كثير.وصبابة من غدير. وأما الفقيه عندهم فطويل الاغتراب يئوب إذا ما العارض المغتر آب، وقد تحاكم إلى قاضيها إذ كنت بها متبائعان في ذهب رديء فحكم بما قيل في ذلك من يمين المبتاع على علمه فحلف وبريء ثم أتى البائع بعد أيام بم شهد له أن صاحبه إنما دفع له سكة فاس وكان الذي تداعيا فيه من سكة فاس، فأحضر المبتاع ووبخه بأنه حلف آثما، وأنه قد ظهر كذبه وحكم عليه بإبدال الذهب، وإلى هذا انتهى بالعلم وأهله الحال ».[1]

[1]. العبدري، المصدر السابق.

غياب العلم كان له وقع كبير في نفس الرحالة، ولذلك نجده يذكر الأخطاء الإعرابية التي سببها عدم فهم البيت الشعري عند المدرسين ، وخاصة إذا عرفنا بأن من أهداف الرحالة وهو يجوب المدن السماع من علمائها وإذ لم يجد مأربه صار الهجاء سبيله، وبغياب العلم يغيب العدل ويتضح ذلك جلياً في حادثة القاضي الذي كان يكتفي باليمين دليلا على الصدق أو الكذب دون تحقق من الأمور أو إعمال للعقل للوصول إلى الحقيقة.

2. طرابلس:

وبعد "تلمسان" الجزائرية نأخذ مثالاً آخر عن مدينة ليبية تعد هي الأخرى من أقدم المدن وأكثرها شهرة وذكراً « ويقال لها (طرابُلُس) و(طرابلس) و(أطرابلس) مدينة قديمة أزلية كانت تسمى (أوايات) وهو لفظ يظهر أنه بربري، وحرفه الرومان إلى (أوا) ومعناه بالإغريقية والرومية ثلاث مدن هي (أوا) طرابلس الآن عاصمة القطر، و(سبرتا) و(لبيدس)، وسبرتا الآن: صبرة، و زواغة، و لبيدس تسمى الآن لبدة، وقد أطلق لفظ طرابلس على كل القطر من حدود مصر شرقاَ إلى حدود تونس غرباً وسماها اليونان (ترابليطة) »[1]. وطرابلس حالياً هي من أشهر المدن الليبية وتعتبر عاصمة لها.

يذكر "**العبدري**" هذه المدينة بهجاء شديد اللهجة وجارح الألفاظ فيقول:

« وصلنا مدينة طرابلس للجهل مأتم وما للعلم بها غرس، أقفرت ظاهرا وباطنا وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقصائدها لمعان البرق الخلب وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا، بل هي أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس على ناشئ منهم فضل لذي شيبة

[1]. الطرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون ، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، المكتبة السلفية ومكتباتها، القاهرة، دط، 1349هـ، ص 14.

ولا لذي الفضل بينهم هيبة. ترى أجساما حاضرة والعقول في عقل غيابات الغيبة وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ من العيوب الغيبة إلى بخل لو مازج ماء البحر جمد وخالط الهواء سكن في أذار و ركد وخلق يضيق به متسع الفضاء، ونزق يحق له في ذمهم كشف الغطاء وأذهان أربت في الضيق على الخاتم سواء لديها من حارب ومن سالم، كأنهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم فسبحان من خلقهم»[1].

نجد الرحالة في هذه الفقرة يزاوج بين هجاء أهل المدينة، وهجاء الطبيعية الموحشة ويصل في هجائه المقذع إلى حدود يخرج فيها عن الهدف الذي ذكره في البداية من الرغبة في الإصلاح بذكر المساوئ بل هو يصل إلى درجة الإسفاف في ذلك، والنقاط التي ذكرها بالهجاء هي:

1. غياب العلم وانعدامه 2.النفاق والكفر
3. غياب خلق التوقير للكبار وأهل الفضل 4. البخل

هذا من الجانب الأخلاقي والاجتماعي في أهل المدنية أما الجانب الطبيعي:

1) القفر وانعدام الغرس
2) غياب الأحواض والأنهار
3) انعدام الطبيعية والرياض...

يصعب على قارئ هذه الفقرة أن يسلم بما جاء فيها من ذم وتحقير لأهل هذه المدينة وتجعله في كثير من الأحيان يتساءل ما الذي جعل الرحالة يتحامل عليها كل هذا التحامل؟!، أو ما هي الظروف أو الحالة النفسية التي لاقته في ذلك الحين جعلته يذكر هذه المدينة بهذا الذم الفاضح؟!

[1]. العبدري، الرحلة المغربية، ص 119.

3. القيروان:

"**القيروان**" من المدن التونسية الضاربة في عمق التاريخ الإسلامي وهي من أعرق مدن المغرب الأدنى ويروى في بنائها الكثير من الكرامات[1]، كما كان العلماء يؤمونها ويقصدونها لطلب العلم والاغتراف من بحوره، « "القيروان" معرب، وهو بالفارسية "كاراوان" وقد تكلمت به العرب قديماً، وهذه المدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً وليس بالغرب مدينة أجل منها»[2] ولا تذكر مدينة "**القيروان**" إلا ويذكر العلم العميم والخير العظيم والرياض البهية والخضار والثمار ومن ذلك قولهم: « القيروان مصر الأقاليم بهي عظيم حسن الأخبار جيد اللحوم، قد جمع أخداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم، مع علم كثير ورخص عجيب (...) وهي فرضة المغربين ومتجر البحرين، لا ترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها ليس غير حنفي ومالكي، مع ألفة عجيبة بينهم لا شعب بينهم ولا عصبية»[3].

غير أن هذه الفضائل التي توصف بها القيروان يضرب بها **العبدري** عرض الحائط ،حيث إنه ما إن يحل ركابه بها يسلط عليها سوطاً لسانياً لاذعاً ونقداً مراً ويقول:

« ثم وصلنا إلى مدينة القيروان فدخلتها مجداً في البحث غير وان، فلم أر إلا رسوماً محتها يد الزمان، وآثار يقال عنها كان وكان، والأحياء من أهلها جفاة الطبع، مالهم في رقة الحضارة باع ولا في معنى من معاني الإنسانية انطباع، خفت نفس العلم بينهم فلم يبق به ومق، وكسدت سوق المعارف بينهم فيا سخنة عين من رمق، والمدينة نفسها ليس لها بر ولا بحر، ولا سحر ولا نحر وضعت في سبخة قرعاء لا ماء فيها ولا

---

[1]. ينظر ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص 30.

[2]. ياقوت الحموي، المعجم، ج 4، ص420.

[3]. إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص 240.

مرعى لا تنبت أصلاً ولا تغل فرعاً وما كان حالها في القديم إلا آية من آيات هذا الدين القويم »[1].

فالمدينة في نظر الرحالة عقيمة لا تنبت العلماء، وسبخة مالحة لا نبات فيها ولا مرعى، رغم أن التاريخ والكتب وغيره من الرحالة يسجلون غير ذلك، وبالرغم من أن **العبدري** نفسه قد سمع فيها من علمائها كما يقال من "**أبي زيد عبد الرحمن بن الأسدي**"[2] إلا أن الرحالة يعزو ذلك كله إلى تبدل الأحوال وتغير الزمان:

« **ولكنها الأيام إذا أعطت أخذت وكلما عضت نبذت، لا تلوي على متعذر ولا تعرف فضل المعذر على المعذر إن سالمت سالمت وإن هادنت داهنت وإن رافقت فارقت...** »[3] وإنما استدرك "**العبدري**" ليخفف من وطأة هجائه للمدينة وأهلها وليذكر بعد ذلك صلحاءها وفاتحوها من المسلمين وتاريخها العريق في ذلك.

4. برقـــــة:

هي أيضا واحدة من المدن الليبية التي مر بها "**العبدري**" في رحلته وهجاها، وفي تعريفها يُقال « بفتح أوله والقاف(...) وأرض برقة أرض خلوقية بحيث ثياب أهلها أبدا محمرة لذلك، ويحيط بها البرابر من كل جانب وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل لوز وجوز وأترج، وسفرجل، وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك ولها آبار يرتفق بها الناس»[4].

يرسم الكاتب صورة كاريكاتورية لهذه المدينة التي يتعذب فيها الحجاج، حيث إنها لا تختلف كثيرا عن "طرابلس" في كون طبيعتها قفر وخواء حتى أنها تصف نفسها بالغول كما ورد في البيتين السابقين.

---

[1]. العبدري، الرحلة المغربية، ص 101.

[2]. ينظر المصدر نفسه ، ص7.

[3]. العبدري،المصدر السابق، ص102.

[4]. ياقوت الحموي، المعجم، ج1، ص125.

أما عن أهلها ففيهم- في نظر الرحالة – فظاظة طبع بالرغم من أنهم يقرأون كتاب الله تعالى. كما يتعرض إلى الجانب الاقتصادي في معاملاتهم إذ لا يعرف هذا المجال أي نوع من التطور فهم يتعاملون بطريقة المقايضة بين السلع، دون الدنانير والدراهم، ولا يحاولون التغيير في ذلك لتقوقعهم في التقليد على مذهب أبائهم وأجدادهم، ويجد بسبب ذلك الحجاج العابرون من هذه المدينة عنتا ومشقة في مثل هذه الطريقة من المعاملات الاقتصادية.

ويتحدث الرحالة أيضا عن المستوى الثقافي الديني الذي هم عليه ويخص بالذكر الجانب النسوي، فنساء هذه المدينة لا يفرقن بين الواجب والمندوب فيغطين وجوههن ويسفرن عن رؤوسهن، إلى جانب أنهن لا يهتممن بجانب النظافة.

هذا عن الجانب النثري في هجاء المدن المغربية الذي خصصناه بالحديث عن الرحلة العبدرية. نتوقف عند هذه الحدود الجغرافية من المغرب العربي الكبير لننتقل إلى الشعر وما ورد فيه أيضا لنتجول مع الشعراء في بعض من المدن الأخرى.

1-2 هجاء المدن المغربية شعراً

كما كان للشعر أيضا دور في هجاء المدن المغربية فقد عمد كثير من الشعراء إلى ذم المدن وذكر مساوئها إذ يعتبر الهجاء واحداً من المعاني التي يحملها الشعر على اختلافها بين رفعة أو ضعة الموضوع « إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة، من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى –كان– من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة»[1]. فالشعر قد يحمل معاني الهجاء أو غيرها وما كان ذلك مستكرهاً عند بعض النقاد وإنما

[1]. قدامة بن جعفر أبو الفرج، نقد الشعر، ص 65- 66.

العبرة في ذلك للتجويد وحسن الصياغة، وقد أعطى في هذا الجانب صوراً جليه لواقع بعض المدن المغربية في القديم، ونقد ذلك الواقع على اختلافٍ كلٌ بحسب وجهة نظره وسبب نقده، « وللشعر دوافع تحث البطئ وتبعث المتكلف، منها الشراب ومنها الطرب، ومنها الطمع، ومنها الغضب ومنها الشوق»[1]، فقد يتشوق شاعر لبلده فيهجو المدينة التي رحل إليها، وقد يغضب فيهجو حتى مدينته وأهله، وقد يطمع فلا ينال مبتغاه أيضا فيعمد إلى الهجاء لتفريغ ثورة غضبه، سنرى من خلال ما سيأتي بعض النماذج على ذلك.

5. تنـــس:

من المدن التي هجيت شعرا مدينة "**تنس**"، وهي من مدن الغرب الجزائري أما اسمها فـ:« بفتحتين والتخفيف والسين مهملة، **قال أبي عبيد البكري:** بين تنس والبحر ميلان، وهي آخر إفريقية مما يلي المغرب، بينها وبين وهران ثماني مراحل وإلى مليانة في جهة الجنوب أربعة أيام وإلى "تيهرت" خمس مراحل أو ست»[2]، هذا عن اسمها وموقعها، أما بناؤها فقد « أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم "الكرنكي" و "أبو عائشة" و"الصقر" و"صهيب" وغيرهم، وذلك في سنة اثنتين وستين ومائتين، ويسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل البيرة وأهل تدمير»[3] ، فأهالي هذه المدينة هو خليط من السكان الأصليين للمغرب العربي وأهل الأندلس الذي يعتبر في حد ذاته خليطاً من الأجناس.

وقد ورد في هجاء هذه المدينة ما نصه:

نَأَى النَّومُ عَنِي واضْمَحَلَتْ عُرَى الصَّبْرِ وأصْبَحْتُ عَن دَارِ الأحِبَةِ فِي أَسْـرِ

وأصبحتُ عَن تِيهَرْت فِي دَارِ غُرِبَـــة وأَسْلَمَنِي مُرُّ القَضَاءِ مِن القَـــــدَرِ

---

[1]. ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تح: مصطفي السقا، المكتبة التجارية الكبرى، ط2، مصر، 1350هـ-1932م، ج01، ص17-18.

[2]. ياقوت الحموي: المعجم ، ج 02، ص48.

[3]. إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص 151.

إلى تنَس دَارُ النُحوسِ فَإنَّـــــــــها يُسَاقُ إليهَا كل مُنْتَقَصُ العُمْـــــــرِ

هُوَ الدَّهْرُ و السَّيافُ والمَاءُ والحَاكِـــــمُ وطَالِعُهَا المَنْحُوسُ صَمْصَامَةَ الدَّهْـرِ

بِلاَدٌ بِهَا البَرْغُوثُ يَحْمِلُ رَاجِـــــــــلاً ويَأْوِي إليْهَا الذِئْبُ فِي زَمَنِ الشَّـــــرِ

ويَرجُفُ فِيهَا القَلْبُ فِي كُلِ سَاعَـــــةٍ بِجَيْش مِن السُودان يغلب بالوفـــــر

تَرَى أَهْلَهَا صَرْعَى دوى أم مُلْـــــــدَم يَرُوحُونَ فِي سُكْرٍ ويَغْدُونَ فِي سُكْـــرِ[1]

تعتبر الغربة والابتعاد عن الموطن الأصل والأهل والأحباب، من أهم الأسباب التي جعلت الشاعر في حساسية مفرطة اتجاه البلد الذي اضطرته الضرورة، والقضاء والقدر إلى السفر والإقامة فيه، فهو يهجو مدينة "**تنس**" ويفضل عنها مدينته "**تيهرت**" مسقط رأسه، وأصبحت بذلك تنس مدينة النحس والحشرات والخوف، فتعذب بقلة النوم وانعدم صبره فيها...

كما يذمها شاعر آخر ويصفها بنقائص خلاف الأول ويقول:

أَيُهَا السَّائِلُ عَن أَرْضِ تَنَـــــــس مَقْعَدُ اللُّؤْمِ المُصَفَى والدَّنَـــــــس

بَلْدَةٌ لا يَنْزِلُ القَطْرُ بِـــــــــهَا والنَّدَى فِي أَهْلِهَا حَـــــــرْفٌ درس

فُصَحَاءُ النُّطْقِ فِي (لا) أَبَـــــداً وهُمْ فِي (نعم) بُكْمٌ خُـــــــــرس

ومَاؤُهَا مِن قُبْح مَا خُصَتْ بِـــــهِ نَجِسٌ يَجْرِي عَلَى تُرُبٍ نَجِـــــس

فَمَتَى تَلْعَنْ بِلاَداً مَـــــــــرَةٍ فَاجْعَل اللَّعْنة دَأْباً لِتـــــــــنس[2]

يذكر هذا الشاعر بالذم طبيعة المدينة وسكانها على السواء فطبيعة البلاد فقيرة من الغيث وسخة المياه والتربة، ويصور بخل أهلها الذين يفتقدون حسن الكرم والضيافة، ولا

[1]. البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبه المثنى، دط، بغداد، دت، ص62. ينظر أيضا، ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج2، ص48، والأزهار الرياضة في أخبار وأئمة الإباضية، ص47، 48.

[2]. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص 63، ينظر أيضاً ياقوت الحمويّ، المعجم، ج2، ص 49.

أدل على ذلك من إسراعهم إلى الإجابة بـ"لا" عوضاً عن "نعم" مع إطلاق في الحكم دون تقيد لسبب معين أو شيء واضح مما من شأنه أن يوضح طرق المعاملة التي أراد الشاعر، أن يصل إليها بتعميمه.

وهذه الأبيات تختلف عن الأخرى في كون الشاعر يفتتحها بالنداء والتنبيه، مخاطباً شخصاً يسأله عن أرض تنس أو يتوهمه، ويختم أبياته بالدعوة الصريحة إلى لعن المدينة.

6. مراكش:

نرحل بعد مدينة تنس الجزائرية إلى المغرب الأقصى وبالضبط مدينة "**مراكش**"، وهي أيضا من المدن التي هجيت قال "**ياقوت الحموي**" في ضبط اسمها:« بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف وشين معجمه»[1]، كما تعتبر "**مراكش**" أيضا من المدن التي اختطت بعد الفتح الإسلامي للمغرب ينسب صاحب معجم البلدان بناءها "**ليوسف بن تاشفين**" [2] ، في حين يعود الأمر في كتاب "**الحلل الموشية**" للأمير "**أبي بكر بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت اللمتوني**" الذي ترك الأمر بعد ذلك "**ليوسف بن تاشفين**".[3]

ومن الشعراء الذين هجوا هذه المدينة:« **عبد الرحمان بن أبي القاسم بن علي الزرويلي الشفشاوني** المعروف بابن الخطيب (993هـ) وكان شاعراً هجاءً»[4] فقال:

مَا كَانَ ظَنِي وَحَقُ اللّه فُرْقَتُكُـــــــــمْ لَوْ أَنَّ مَرَاكشا كَانَتْ تُوَاتِيـــــــــنِي

أَظَلُّ فِي نَصَبٍ مِمَا أُكَابِدُ مِـــــــــنْ نَفْضِ الغُبَارِ وَمِن طَرْدِ الذَبَابِـــين

وطُولُ لَيلِي فِي كَرٍ وفِي تَعَـــــــــبٍ مَا بَيْنَ بَقٍ ونَامُوسٍ يُنَاغِينِـــــــي

---

[1].ياقوت الحمويّ، المعجم، ج5، ص 94.

[2]. نفسه.

[3]. مؤلف أندلسي من أهل القرن 8هـ، الحلل الموشة في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد، ط1، الدار البيضاء (الرباط)، 1399هـ، 1979م، ص 15.

[4]. المكناسي،أحمد ابن قاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، دط، الرباط، 1973، ص 413.

أَبِيتُ أحْرِسُ فَرْشِي مِن عَقَارِبِـــــــــهَا والقَلْب فِي فِكْرٍ مِنْهَا وتَخْمِـــــــينِ

إِذَا رَأَيْتُ سَوَاداً مَرَّ بِي وأَتَـــــــــــى ظَنَنْتُهُ عَقْرَباً دَبَتْ لِتُؤْذِينِـــــــــــي

لَمْ يَبْقَ فِي الفَمِّ ضِرْسٌ أَسْتَعِدُ بِـــــــهِ أَفْنَاهُ مَضْغُ الحَّصَا مِن ذِي الطَوَاحِينِ

مُنُوا عَلَيّ بِإِطْلَاقِي بِفَضْلِكُـــــــــــــم هَذَا العُجَاجُ بِهَا قَدْ كَادَ يُعْمِينِـــــي

لَمْ يَبْقَ فِي الكِيسِ فِلْسٌ أَسْتَعِينُ بِـــــهِ أَفْنَيْتُ مَالِي فِي غَسْلٍ وتَصْـــــبِـينِ[1]

يطالعنا "**الشفشاوني**" بصورة هزلية عن معاناته وهو في "**مراكش**"، حيث إنه ما كان ليفضل الفرقة والابتعاد عن أصحابه لولا وجود تلك الحشرات التي نغصت عليه نومه مثل البق و الباعوض والعقارب، إضافة إلى الغبار(العجاج) الذي يحجب عنه الرؤية ويعميه، ليس هذا فقط بل ويكدر عليه صفو عيشه ويهدر له ذخيرته من النقود في الغسيل والصوابين على حد تعبيره.

وقبل أن نغادر حاضرة "**مراكش**" ندرج هذين البيتين أيضا للوزير "**أبو الحسن الغرناطي**":[2]

يَا حَضْرَةَ المَلِكِ مَا أَشْهَاكِ لِي وَطَناً لَوْلاَ ضُرُوبُ بَلاَءٍ فِيكِ مَصْبُوبِ

مَاءٌ زُعَاقٌ وَجَوٌّ كُلُهُ كَـــــــــدَرٌ وَأُكْلَةٌ مِنْ بَاذِنْجَانِ ابْنُ مَعْيُـوبِ[3]

فالطبيعة المكدرة والخضار المسمومة هي التي حملت الشاعر على ذم مراكش رغم تعلقه بهذا الوطن.

---

[1]. المكناسي، نفسه، ينظر أيضا، السملالي، الإعلام، ج8، ص 112.

[2]. كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين ملك غرناطة.

[3]. المقري، التلمساني، نفح الطيب، ج4، ص 12.

1. فاس:

نبقى في نفس المجال الجغرافي من **المغرب الأقصى** مع التوجه شمالاً إلى مدينة "**فاس**"، وهي « بالسين المهملة مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش»[1] « ومدينة "فاس" مدينتان كبيرتان مفترقتان يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادي فاس»[2]. ولم تسلم هذه المدينة من هجاء شديد اللهجة يصل حد الإسفاف في بعض الأحيان ويعتبر "**أبو بكر يحي بن سهل اليكي**" من الشعراء الذين أسرفوا في ذلك، يوصف هذا الشاعر « بهجّاء المغرب، هذا الرجل هو ابن رومي عصرنا، وحطيئة دهرنا لا تجيد قريحته إلا في الهجاء ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء وقس على قوله في الهجاء ما أوردت:

أعد الوضوء إذا نطقت به متذكراً من قبل أن تنسى

واحفظ ثيابك إن مررت به فالظل منه ينجس الشمسا»[3]

ويقول هذا الشاعر في مدينة "فاس":

يَا أَهْلَ فَاسٍ لَقَدْ سَاءَتْ ضَمَائِرُكُـم فَأَصْبَحَتْ فِيكُمْ الآرَاءُ مُتَّفِقَـــــــة

كُلُ امْرِئٍ فِيكُم قَدْ حَازَ مَنْقَـــــصَة بِهَا أَحَاطَ كَدَوْرِ العَيْنِ بِالْحَدَقَـــــة

وَرُبَمَا اجْتَمَعَتْ فِي بَعْضِ سَادَتِكُــم نَقَائِصٌ أَصْبَحَتْ فِي النَّاسِ مُفْتَـرِقَة

كَالقَرْنِ والقَودِ المَشْهُورِ وَالكَذِبِ الـ مَعْرُوفِ والخُلَةِ الشَّنْعَاءِ والسَّرِقَـــة

فلا تَهَابَنَّ فاسياً مَرَرْتَ بِـــــــهِ وإِنْ تَقُلْ فِيه خَيْراً حَولْ الوَرَقَـــــــة

والْعَنْهُ شَيْخَاً وكَهْلاً واجْفُه حَدَثَـــاً ..... طِفْلاً ولَوْ أَلْفَيْتَه عَلَقَـــــــه

فَلاَ سَقَى الله فَاساً صَوْبَ غَادِيةٍ نَعَمْ وَلَا اخْضَرَ فِي أَرْجَائِهَا وَرَقَـــة[1].

---

[1]. ياقوت الحمويّ، المعجم ، ج ، ص 230.

[2]. إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص 333.

[3]. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، دت، ج02، ص 266.

لا يكتفي الشاعر بأن يصبغ على أهالي مدينة "**فاس**" الصفات الشنيعة، بل يزيد على ذلك بأن يدعو غيره إلى ذلك وإلى لعن أهل المدينة ثم يختم صواعقه اللسانية بالدعاء عليهم بالجفاف والقحط كما قال فيهم أيضاَ:

قَصَدْتُ خُلَّةَ فَاسٍ أَسْتَرْزِقُ الله فِيهِمْ
فَمَا تَيَسَّر مِنْهُـم دَفَعْتُهُ لِبَنِيهِـــمْ[2]

يحمل هذان البيتان وجهان من أوجه التفسير أولهما أن الشاعر كان يستجدي أهل مدينة "**فاس**" ثم ينفق ما تيسر له منهم في أبنائهم الذين لهم نفس الخلة، وثانيهما أنه يسترزق من أهلها ثم ينفقه في غلاء الأسعار في المدينة.

نترك الشاعر "**اليكي**" إلى شاعر آخر، من الشعراء الهجائين أيضا يعرف "**بالجراوي**"[3]، وقد قال في مدينة "**فاس**":

مَشَى اللُّؤْمُ فِي الدُّنْيَا طَرِيداً مُشَرَدَاً يَجُوبُ بِلَادَ الله شَرْقاً و مَغْرِبَـاً
فَلَمَا أَتَى فَاسَاً تَلَقَاهُ أَهْلُـــــــهَا وَقَالُوا لَهُ: أَهْلاً وَسَهْلاً ومَرْحَباَ[4]

في أسلوب حكائي يستعير الشاعر المشي للؤم، ليجسد له بذلك صورة إنسية يتنقل بها في أرض الله الواسعة ولكنه لم يلق الترحيب إلا في مدينة "**فاس**".

---

[1]. صفوان بن إدريس أبو بحر التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، دط، بيروت 1358هـ-1939م، ص 221، ينظر أيضاً ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 266.

[2]. المصدر السابق، ص 122، البيتان عند ياقوت الحموي =

= دخلت بلدة فاس***أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـم***أنفقته في بنيهـم

[3]. أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي(609هـ)، دخل الأندلس مترددا عليها وكان عالما بالآداب، ألف كتابا سماه(صفوة الأدب ونخبة كلام العرب).

[4]. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1994، ص 137.

المبحث الثاني: هجاء المدن الأندلسية

2-1 هجاء المدن الأندلسية نثراً (معيار الاختيار أنموذجا)

لا تختلف "**المقامة**" عن الرحلة كثيراً باعتبارها جنس يصور تنقل الكاتب أو البطل و سفره من مكان إلى آخر يجوب الآفاق، ويقص رحلاته ويحكي عن مغامراته في أصقاع البلاد التي يزورها، كما يكدي ويحتال في كثير من الأحيان، وقد حملت المقامة من النقد الاجتماعي ما حملت باعتبارها تصور واقعاً مزرياً يمر به بلد من البلدان، أو فئة معينة من الفئات الاجتماعية، ولذلك كانت المقامة من الأجناس الأدبية التي هجت المدن، وبالرغم من أن هذا الفن نشأ في المشرق، إلا أنه عرف صدى في المغرب العربي كغيره من الفنون الأدبية، وإن اختلف في الموضوعات في بعض الأحيان، إن « المقامة شأنها شأن القصيدة، قد غزت كل البلدان التي تبنت العربية، واستمرت حتى بداية القرن العشرين، و« لأن التقليد هو بشكل ما خيانة، فإن سمات الأصل قد تغيرت على مر الزمن»[1].

وقبل أن نتحدث عن إحدى المقامات التي هجت المدن نقف أولا عند مفهوم فن المقامة لغة واصطلاحاً.

المقامة لغة:

استعملت كلمة مقامة للدلالة على فن أدبي معين ولكنها قبل ذلك لها معاني لغوية قد تقترب من المعنى الاصطلاحي، فقد ورد في "**لسان العرب**" **لابن منظور** في مفهوم المقامة قوله: « والمقام والمقامة: المجلس ومقامات الناس: مجالسهم، قال العباس ابن مرداس، أنشده ابن بري:

فأيّ ما وأيك كان شراً***فقيد إلى المقامة لا يراها

ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس: مقامة، ومنه قول لبيد:

[1]. عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط2، المغرب، 2001، ص 05.

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام (...)

وأنشده "**ابن بري لزهير**":

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ومقامات الناس: مجالسهم أيضا»[1]

هذا عن التعريف اللغوي عند "**ابن منظور**"، والذي يرتكز أساسا على معنى المجلس يجتمع فيه القوم، وهو استعمال جاهلي للكلمة « ونتقدم في العصر الإسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره، ويتحدث واعظاً وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها، ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة»[2].

نجد أن الكلمة من خلال هذا لم يتغير معناها جذرياً بل بقي دائم الدلالة عن الحديث والمجلس، وإن اختلف المجلس وأصحابه أو طبيعة الحديث وموضوعه، ولكن ما العلاقة التي يمكن أن تربط بين التعريف اللغوي والاصطلاحي؟

المقامة اصطلاحاً:

ولعل من أوائل الذين تعرضوا لمفهوم المقامة "**زكي مبارك**" حيث قال: « وأظهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع هو فن المقامات وهي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون»[3] فالمقامة عند **مبارك** نوع من أنواع الأقاصيص، إلا أن من النقاد من خالفه في الرأي منهم "**شوقي ضيف**" حيث يرى أن المقامة ليست قصة « وإنما هي حديث أدبي بليغ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط، أما هي في

---

[1]. ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص 3787.

[2]. شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1954م، ص 7.

[3]. زكي مبارك، النثر الفني في القرن 04، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، القاهرة، 2013م، ص 199.

حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة»[1]، وفي كل الحالات تبقى المقامة فن أدبي عربي خالص أصيل له من المميزات ما يجعله يتفرد، وفي كلا الأمرين أيضا تحتاج المقامة – باعتبارها حديثاً– إلى مستمعين، وهذا ما يربط المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي إذ يعقد هؤلاء المستمعين مع راوي المقامة مجالس يحدثهم فيها ويروي حكاياه.

لسان الدين بن الخطيب ومعيار الاختيار:

يعتبر "**لسان الدين بن الخطيب**" من الكتاب الذين طرقوا فن المقامة واستطاع من خلالها أن يبدي براعته وقدرته الأدبية ليس فقط في مجاراة هذا الفن، بل أيضا في الإبداع والتجديد فيه، نتعرف قبل ذلك على هذه الشخصية الفذة.

لسان الدين بن الخطيب:

يعد "**نفح الطيب**" من أشهر الكتب التي ألفت لرصد حياة وإبداعات **لسان الدين بن الخطيب**، إذ خصص له المقري جزءاً كبيراً للتعريف به وبمؤلفاته، يقول صاحب الكتاب في تعريفه: « ذو الوزارتين، الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله، ابن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب»[2] هذا عن نسبه الذي يظهر أنه من بيت عريق في الفقه والعلم، أما من جهة أدبيته فيقال أنه :« كان من أعظم كتاب عصره وشعرائه بل هو من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق وقد بلغ في النثر مرتبة التفوق التي لا يدانيه فيها سوى القليل، وأعظم ما يتميز به شعر "**ابن الخطيب**" ونثره، هو وفرة التنوع والافتنان في الموضوعات والمعاني ويرجع ذلك إلى توقد قريحته

[1]. زكي مبارك المصدر السابق، ص 9.

[2]. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص7.

وسعة أفقه وإلى حياته المتنوعة الفياضة بمختلف الأحداث والمحن»[1]، كان الكاتب **لسان الدين** متضلعاً في الأدب وغيره حتى أنه جمع بين البراعة الشعرية والجودة النثرية، وقد ألف العديد من الكتب التي تشهد له بذلك، كما أن لقب "**ذي الوزارتين**" يؤكد مدى خبرته الحياتية الواسعة إذ جمع بين الحنكة السياسية وفنون الكتابة.

كتاب معيار الاختيار:

كما يعتبر معيار الاختيار من بين أهم المؤلفات التي اختطها "**لسان الدين**" وهو فريد في بابه« وقد ذكر الوزير ابن الخطيب في آخر كتابه **(الإحاطة)** أسماء مؤلفاته إجمالا وأورد من بينها مؤلفه **(معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار)** على أنه مؤلف قائم بنفسه، ثم أورده في باب **(المقامات)** من مؤلفه الضخم **(رياحانة الكتاب، وتحفة المنتاب)**[2] »[3].

أما موضوعه فهو عبارة عن مسح شامل ووصف دقيق للمدن المغربية والأندلسية في كثير من النواحي، الجغرافية والاجتماعية والحضارية وغيرها، وكان في كل ذلك يصف الجانبين السلبي والإيجابي لكل مدينة، وإنما اعتبر كتابه مقامة لأنه التزم خصائص المقامة من جمل قصار مسجوعة واعتماد البطل والراوي في بداية المقامة، وكذا أسلوب القص المقامي، بالرغم من أن مقامات "**بديع الزمان الهمذاني**" كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوعة الكدية حيث « يذكر الهمذاني في واحدة من رسائله أن مقاماته موضوعها الكدية يبدو هذا القول للوهلة الأولى مفتقدا للدقة ليست الكدية الموضوعة الوحيدة المعالجة في المقامات، هذه المقامات التي تخصص حيزاً لمجموع موضوعات الأدب تقريباً»[4].

---

[1]. لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، 1393هـ-1973م، ج01، ص 44.

[2]. ينظر، لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، 1401هـ-1981م، ج2، ص 229.

[3]. لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، دط، القاهرة، 1423هـ-2002م، ص 43.

[4]. عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق، ص61.

ويعد "**لسان الدين**" واحدا من أولئك الذين اخترعوا للمقامات موضوعات أخرى وبرع في الاختراع، إن عبقرية "لسان الدين" كما ذكرنا آنفاَ، جعلته يأنف التقليد وينقب عما يمكن أن يضيفه للمقامات ليبرز التنوع و التفرد « إن المكانة الخاصة التي كان يتربع عليها باعتباره عالماً مجدوداً، وكبيراً من كبراء قصر الحمراء في غرناطة، وذا الوزارتين تربأ به عن اتخاذ ذلك المذهب المقامي الذي صور الأدباء من خلاله تعثر حظوظهم، كما أن البيئة الأندلسية والمغربية التي تقلب فيها، واتصل بها في حياته في حالتي الإقبال والإدبار، تختلف من جهة استقرارها الاقتصادي، بل ترفها المادي عن البيئات المشرقية التي عمد كتاب المقامات إلى تصويرها وكشف جوانبها البائسة التي شاهدوها»[1].

إلا أننا نقف عند حدود الاستقرار الاقتصادي، وترف البيئة المغربية عن أختها المشرقية، ونقول بأن "لسان الدين" في "**معيار الاختيار**" كان يذكر بؤس بعض الفئات الفقيرة في المجتمعات المغربية حيث أنها لا تختلف كثيراً عنها، ودليل ذلك وجود بعض الأدباء الذين طرقوا في مقاماتهم موضوع الكدية أمثال "السرقسطي".

والمقامة في مجلسين، أما الثاني منهما فيصف فيه المدن المغربية والأول في المدن الأندلسية الذي سنخصه بتحليل مواطن الذم فيه.

1. غرناطة:

تعتبر "**غرناطة**" من أعظم المدن الأندلسية، وهي من معاقل الإسلام الذائعة الصيت واسمها بالضبط « بفتح أوله و سكون ثانيه ثم نون، وبعد الألف طاء مهملة»[2]، « مدينة بالأندلس بينها وبين "**واد آش**" أربعون ميلاً وهي من "**إلبيرة**"، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس (...) مدّنها وحصن أسوارها و بنى قصبتها "**حبوس الصنهاجي**" ثم خلفه ابنه

[1]. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، دار المدار الثقافية، ط1، البليدة (الجزائر)، 1430هـ-2009م، ج1، ص 293.

[2]. ياقوت الحموي، المعجم، ج4، ص 195.

"**ابن باديس بن حبوس**"، فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن، وقيل إن الصواب "**أغرناطة**" بالهمز، ومعناها بلغتهم الرمانة»[1].

يقول "لسان الدين بن الخطيب" في المدينة التي هي مسقطه رأسه:

« لكنها والله بردها يطفئ حرّ الحياة، ويمنع الشفاه عن رد التحيات، وأسعارها يشمر معيارها بالترهات، وعدوها يعاطي كؤوس الحرب بهاك وهات، إلى السكك التي بان خمولها، ولم يقبل الموضوع محمولها، والكرب الذي يجده الإنسان فيها صادف إضافة أو ترفيها، والمكوس التي تطرد البركة وتلقيها إلى سوء الجوار، وجفاء الزوار، ونزالة الديار، وغلاء الخشب والجيار، وكساد المعايش عند الاضطرار، وإمعان المقابر وهي دار القرار، وقصر الأعمار، واستحلال الغيبة والأسحار، واحتقار أولى الفضل والوقار، والتنافس في العقار والشح في الدرهم والدينار باليم و النار»[2].

يذكر الكاتب بالقسم، للتأكيد والمبالغة، شدة البرد في مدينته، هذا البرد الذي يطفئ –كما قال– جذوة الحياة فيها و حرّها، بل إنه يمعن في وصفه الذي يجعل الجسد يتجمد لدرجة أن الإنسان لا يستطيع أن يرد التحية، هذا عن الجانب الطبيعي، أما الجانب الاجتماعي وحتى السياسي منه والحضاري، فيرى أن العدو في المدينة لا يهدأ ولا يشعر فيها المقيم بالأمان، زيادة إلى خمول أزقتها، أما أهلها فلهم في الإساءة للجيران خله، وفي حديثهم وأسمارهم غيبة وغير ذلك من سوء أخلاق كما يتعرض أيضا إلى الجانب الاقتصادي فيها حيث أن الأسعار فيها ترتفع باطلاً، وخص ذلك بغلاء الخشب و الجيار، كما أنهم يتعرضون إلى كساد المعاش عند الضرورة.

---

[1]. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، ط2، بيروت (لبنان)، 1948، ص 45.

[2]. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 121– 123.

"فابن الخطيب" كما نلاحظ لم يترك جانباً من الجوانب لم يطرقه، بل إنه استخرج من كل بستان شوكه، ولم يحجبه عن ذلك كون المدينة مسقط رأسه.

2. **مالقة:**

« بفتح اللام والقاف، كلمة عجمية مدينة بالأندلس عامرة من أعمال "**رية**" هي على ساحل البحر المجاز المعروف بالزقاق (...) وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد، وكثر قصد المراكب والتجار إليها»[1]، « و "**لمالقة**" مما خصت به ما خصها من شجر اللوز وشجر التين، إذ هو بها طوفان لا تزال تحمل منه الركاب و السفين»[2] فهي في الأصل بلاد خير وخضرة وخاصة وأنها تقع على الساحل ومع ذلك فقد تعرضت للذم في بعض جوانبها.

يقول "ابن الخطيب" في ذلك:

« وعلى ذلك فطينها يشقى به فطينها، وأزبالها تحي به سبالها، وسروبها يستمد منها مشروبها، فسحبها متغيرة وكوكب أذمانها متحيرة، وأقطارها جد شاسعة، وأزقتها حرجة غير واسعة وآبارها تفسدها أدبارها، وطعامها لا يقبل الاختزان، ولا يحفظ الوزان، وفقيرها لا يفارق الأحزان، وجوعها ينفي به هجوعها، تحث على الأمواج أقواتها، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها وأرحيتها تطرقها النوائب، وتصيب أهدافها السهام الصوائب وتعدلها الجنايب، وتستخدم فيها الصّبا والجنايب، وديارها الآهلة، قد صم بالنزائل صداها، وأصبحت بلاقع بما كسبت يداها، وعين أيانها أثر، ورسم مجادتها قد دثر، والدهر لا يقول لمن عثر، ولا ينظم شملاً إذا انتثر، وكيف لا يتعلق الذام ببلد يكثر به الجذام، علة بلواه آهله، والنفوس بمعرة عدواه جاهلة»[3].

---

[1]. ياقوت الحموي، المعجم ، ج5، ص 43.

[2]. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 423.

[3].ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص90- 91.

يصف "بن الخطيب" في هذه الفقرة الوضع العمراني لهذه المدينة من طرقات يصعب التنقل فيها بسبب طينتها، وكذا انتشار الأوساخ، كما تجمع هذه المدينة بين بعد المسافة بين أقطارها وضيق شوارعها واختلاط المياه الصالحة للشرب الموجودة في الآبار بالمياه غير الصالحة، أما من حيث المعاش، فلا يمكن فيها حفظ الأطعمة لأنها تتلف سريعاً، كما يتعرض للحالة الاجتماعية السيئة من انتشار للفقر والجوع بسبب أن تحصيل الرزق والأقوات إنما يكون بمشقة السفر وركوب البحر، وتشتد على أهاليها النوائب بسبب ما كسبت أيدهم كما يقول، أما في قوله " **والدهر لا يقول لمن عثر**" أي أن الدهر لا يدعو لهذه المدينة بالانتعاش استناداً إلى المثل العربي الذي معناه أن الدهر لا يدعو لك بالانتعاش إذا عثرت.[1]

كما قد يتعرض ابن الخطيب لبعض المدن في جملة أو جملتين ولا يتعدى ذلك ومع ذلك تكون محبوكة الصنع، مترعة بالمعاني ومن ذلك قوله في بعض المدن مثلاً:

3. **صالحة**:[2]

« مهب نسف، ودار خسف، وأهلها بهم ليس لأحد منهم فهم»[3]

يتعرض في هذه العجالة إلى عديد من الجوانب الطبيعية السيئة مثلاً في قوله مهب نسف أي أنها بلاد الرياح الكثيرة، وكذا الهلاك، ثم يتعرض لطبائع أهلها بالذم والتشبيه بالبهائم.

[1]. ينظر، ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص :91.

[2]. مدينة زالت معالمها منذ القرن 16م موقعها قديما كان قرب الحمة.

[3]. ابن الخطيب، نفسه، ص 125.

4. **فنيانة**:[1]

ومثال ذلك أيضاً ما قاله في مدينة "فنيانة":

« إلا أن بردها كثير، وودقها نثير، وشراراها لهم في الحياة تأثير»[2].

فهو يجمع في هذه الجملة بين ذم الطبيعة في شدة البرد وقلة الغيث، وذم أهلها حيث إن أشرارهم يتحكمون في أمورهم، وذلك يعني أن صلاحهم من الضعف إذ لا يستطيعون التحكم والسيطرة عليها.

ويعمل "ابن الخطيب" أيضاً على تحلية نثره بأبيات شعرية في بعض الأحيان، وغالباً ما قام أصحاب المقامات بذلك، و ينوع في ذلك فأحيانا يكون في آخر كلامه وأحيانا في وسطه، وتارة يكون من نظمه و أخرى يكون من غيره، ونأخذ مثالين على ذلك أيضا.

5. **بيرة**:

يعرّف "ابن سعيد" بيرة بقوله :« مملكة جليلة بين مملكتي "**قرطبة**" و"**المرية**" ومملكتي "**جيان**" و"**مالقة**"، وهي كثيرة الكتان والأشجار و الأنهار وما يطول ذكره من صنوف الخيرات»[3].

ورغم هذه الإيجابيات فقد أخذ "ابن الخطيب" في ذمها حيث قال:

« إلا أنها قليلة المطر، مقيمة على خطر، مثلومة الأعراض والأسوار، مهطعة لداعي البوار، خليقة الحسن المغلوب معللة بالماء المحلوب، آخذة بأكظام القلوب، خاملة الدور، قليلة الوجوه والصدور، كثيرة المشاجرة والشرور، برُّها أنذر من برِّها في المعتمر والبور، وزهد أهلها في الصلاة شائع في الجمهور، وسوء ملكة الأسرى بها من الذائع والمشهور.

---

[1]. تقع ضمن مقاطعة المرية على مسافة 30كم جنوب شرق وادي آش.

[2]. ابن الخطيب، نفسه، ص113.

[3]. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج :1، ص 91.

ما قام خيرك يا زمان بشرّه أولى لنا ما قلَّ منك وما كفا»[1].

قلة الأمطار والمياه والجفاف الذي أدى إلى بوار أراضيها وقلة إنتاجها من السلبيات التي تميز طبيعة هذه المدينة، أما عن الجانب الاجتماعي فتكثر فيها الشرور وينعدم البِرُ، ويطعن زيادة على ذلك في إيمان أهلها من حيث تهاونهم في الصلاة وسوء معاملة الأسرى الذي أوصى به الدين الحنيف ثم يختم هجاءه ببيت شعري.

6. **برجة:**[2]

وهي أيضا من المدن التي هجاها "ابن الخطيب" وضمن هجاءه لها أبياتا شعرية فقال:

« إلا أن متبوأها بسيط مطروق، وقاعدتها فروق، ووتدها مطروق ومعقلها خرب، كأنه أحدب جرب، إن لم ينقل إليه الماء برح به الظمأ، والله در صاحبنا إذ يقول:

يا بسيطا بمعاني برجة أصبح الحسن بها مشتهراً

لا تحرك بفخار مقــولا فلقد ألقمت منها حجـــــرا

والبرّ بها نذر الوجود واللحم تلوه، وهما طيبتا الوجود، والحرف بها ذاوية العود، والمسلك إليها بعيد الصعود»[3].

يعبر الكاتب عن بساطة المدينة ووضاعتها، وتعرضها في كل مرة للغارات، كما استعمل تورية في قوله "وتدها مفروق" والمصطلح عروضي كما هو معروف ويقصد بذلك البنايات والأسوار التي تتخللها المياه، كما يصف معقلها بالخرب ويشبهه بالأحدب، ولا يقف عند حدود التشبيه، بل هو أحدب جرب، ويدرج بعد ذلك بيتين لشخص يصفه بصاحبنا، ليدعّم بذلك رأيه في المدينة، ثم يسترسل في الوصف بعد ذلك ويبدأه مرة أخرى

---

[1]. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 106.

[2]. مدينة بالأندلس من أعمال إلبيرة.

[3]. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص99.

بالطبيعة إذ ينذر فيها البُر واللحم اللذان يعدان من أطيب الأطعمة، ثم يعرج بعدُ إلى الوضع الاجتماعي ويتحدث عن إهمال الحِرف وغيابها في هذه المدينة.

هذه إذا بعض المدن التي تعرض لها لسان الدين بن الخطيب بالهجاء والمقامة ثرية بنماذج أخرى، أظهر فيها الكاتب براعته اللغوية والفنية، وحذقه بالمدن الأندلسية والمغربية، وبأوضاعها الاجتماعية والطبيعية وحتى الثقافية، في عمق معنى، إلا أنه يتكئ فيها كثيراً على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية يصل حد الإلغاز أحياناً.

2-2 هجاء المدن الأندلسية شعرا

وبعد هذه الجولة الجغرافية في المدن الأندلسية نثراً ننتقل إلى المطلب الثاني والذي يختص بالجانب الشعري في هجاء المدن الأندلسية، ، وقد سبق لنا القول أن الشعر كان يرسم صورة حية للأوضاع الاجتماعية، ووصفاً دقيقاً للطبيعة الوعرة ولصعوبة التأقلم مع بعض أوضاعها وخاصة إذا كان الشاعر قد انتقل من جو عهده إلى آخر لم يرقه، أو أنه رأى من أهل المدينة ولقي منهم ما أساء إليه.

1. رندة:

« بضم أوله، وسكون ثانية، وهي مدينة قديمة على نهر جار وبها زرع واسع وضرع سابغ»[1]« وهي أحد معاقل الأندلس الممتنعة وقواعدها السامية المرتفعة».[2]

يقول الشاعر "**أبو الفتح ابن فاخر التونسي**"[3] في هذه المدينة:

قُبْحاً لِرَنْدَة مِثْلَمَـــا قَبُحَتْ مُطَالَعَةُ الذُّنُــوبِ
بَلَدٌ فِيهِ وَحْشَــــه وَمَا إن يُفَارِقُه القُطُـوب
ما حَلَّهَا أَحَدٌ فَيَنْـوِي بَعْد بَيْنٍ أَنْ يَـــؤُوب

[1]. ياقوت الحموي، المعجم، ج 3، ص 73.
[2]. ابن سعيد، المغرب، ج 1، ص 334.
[3]. لم نعثر على ترجمة وافية للشاعر.

لَمْ آتِهَا عِنْدَ الضُّحَى إلا وَقِيلَ لِي الغُـــــرُوب
أُفُقٌ أَغَمٌ وَسَاحَـــــةٌ تَمْلَأُ القُلُوبَ مِن الكُرُوبِ
لَمْ يَجْرِ لِي طَرْفٌ بِهـا إلا وعَاجَلَهُ النُّكُـــــوب[1]

يدعو الشاعر على المدينة بالقبح كقبح الذنوب ومطالعتها إذ يوجد في هذه البلدة قطوب، وإن فارقه ففيه وحشة ويبدو أن "ابن فاخر" كان غريباً عن المدينة لذلك كان يشعر بالرهبة فيها، حتى ليقول أنه لا أحد يزور هذه المدينة إلا ويشعر برغبة في الرحيل عنها، لأنها تتميز بقصر وقت النهار والضباب الذي لم يعهده الشاعر.

2. المرية:

والمرية واحدة من المدن الجليلة والجميلة في الأندلس واسمها « بالفتح ثم الكسر، وتشديد الياء بنقطتين من تحتها وهي مدينة كبيرة من كورة إلبيرية من أعمال الأندلس»[2]، وفي وصف جمالها يقال « أن لها على غيرها أظهر مزية، بنهرها الفضي، وبحرها الزبرجدي، وساحلها التبري وحصاها المجزع، ومنظرها المرصع، وأسوارها العالية الراسخة وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة (...) ومما تفضل به اعتدال الهواء وحسن مزاج أهلها وطيب أخلاقهم ولطف أذهانهم»[3].

يخص "**السميسر**" المدينة بالهجاء، أما الشاعر فقد ورد في تعريفه أنه « كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره (...) وله طبع حسن، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقدح، أما إذا طول ومدح، فقلما رأيته أفلح ولا أنجح»[4] فالأديب إذا له سوابق في الهجاء إلا أن شعره الهجائي يتميز بكونه عبارة عن مقطوعات شعرية لا يطيل

[1]. المقري التلمساني، نفح الطيب، م:، ص 132، ينظر أيضاً، ابن سعيد، نفسه، ج 01، ص 334.
[2]. ياقوت الحموي، المعجم، ج05، ص 119.
[3]. ابن سعيد، المغرب، ج1، ص 193.
[4]. ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص 882.

فيها، وكأني بالإطالة في مذهبه تذهب بالأثر وتقلل من وقع أبياته، ونجده يقول عن "**المرية**" في المقطوعة الأولى:

بِئْسَ دَارُ المِرْيَة فيها لَيْسَ فِيهَا لِسَاكِنٍ مَا يُحِبُ

بَلْدَةٌ لا تُمار إلا بِرِيحٍ رُبَمَا قَدْ تَهُبُ أَو لا تَهُـــبُ[1]

لا يوجد لمن يسكن هذه المدينة، حسب الشاعر، شيء يحبه، رغم المزايا التي ذكرناها سابقاً، وتعبث بها الريح في هبوب تارة وإنعدام تارة أخرى.

ويقول في المقطوعة الثانية:

قَالُو المِرْيَة فِيهَا نَظَافَة قُلْتُ إِيـــهٍ

كَأَنَّهَا طَسْتُ تِبْرٍ ويبْصُقُ الدَمُّ فِيهِ[2]

ومن هجاء الطبيعة إلى الهجاء الحضاري إذ تنعدم في هذه المدينة، حسب الشاعر مرة أخرى، النظافة وهي أساس الراحة والعيش السليم، ويشبهها بوعاء التبر (الأسود اللون) وفوق ذلك تبصق الدماء فيه « وأكثر شعر "السميسر" في الهجاء تعميمي المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع»[3].

3. شاطبة:

لا تختلف عن "المرية" في العظمة وهي « بالطاء المهملة، والباء الموحدة: مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة»[4] « مانعة كريمة تعز بامتناع

[1]. السملالي، الإعلام، ج8، ص 480، ينظر أيضا، ابن بسام، نفسه.

[2]. السملالي، المصدر السابق.

[3]. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي،.عصر الطوائف والمرابطين ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان 1997، ص114

[4]. ياقوت الحموي، المعجم، ج3، ص 309.

معقلها نفوس أهلها وتخرج من بطحائها في أحسن متأمل»[1]، وقد هجيت كغيرها من المدن الأندلسية، إذ يقول فيها:

شَاطِبَه قَرْيَة ضَنِينَـــــة لَيْستْ لِمَنْ أَمَهَا مُعِينَــة

تَهْتَضِمُ الطَّيبَ اِهتِضَــاماَ وتَأْنَفُ الدَّهْرَ أَنْ تُعِينَــه

والخُبْثُ المحضُ تَصطَفِيه ضِدًا لِمَا جَاءَ فِي المَدِينَة[2]

ورغم أن الشاعر من أهل المدينة إلا أنه هجاها، فهي قرية تضن على من يؤمونها ولا تساعدهم و تهتضم الطيب أيضا، كما تنتشر فيها الخبائث.

كما هجاها الشاعر "**أبي بحر بن صفوان ابن إدريس**" وهو من الأدباء الذائعي الصيت حتى قيل فيه« كان أديباً حسيباً (جليلاً أصيلاً) ممتعاً من الظرف ريان من الأدب حافظاً (حسن الخط) سريع البديهة... »[3]

قال في المدينة:

شَاطِبَه الشَّــرْقِ شَرُّ دَار لَيْس لِسَاكِنِهَا فَــلاَحُ

الكَسْبُ مِن شَأْنِهم ولَكِنْ أَكْثَرُ مَكسُوبِهم سُلَاح

إنَّ لَهم فِي الكَنِيف حفْظاً وهِي بِأَسْتاهِهِم مُبَاح[4]

هجاء الشاعر كما هو ملاحظ هجاء تجريحي لا يتورع فيه عن استعمال الألفاظ البذيئة في حق أهل المدينة.

---

[1]. ابن سعيد، نفسه، ج 02، ص 380.

[2]. صفوان ابن إدريس، زاد المسافر، ص 137.

[3]. صفوان بن إدريس، السابق، ص 9.

[4]. ياقوت الحموي، المعجم، ج3 ، ص255.

4. بلنسية:

« السين مهملة مكسورة، وياء خفيفة: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة "**تدمير**" وهي شرقي "**تدمير**" وشرقي "**قرطبة**"»[1] وفي مدحها قيل « مطيب الأندلس، ومطمح الأعين والأنفس قد خصها الله بأحسن مكان وحفها بالأنهار والجنان لا ترى إلا مياها ترتفع ولا تسمع إلا أطياراً تسجع ولا تستنشق إلا أزهاراً تنفح»[2].

يقول "الحصري" في صورة كاركاتورية حول هذه المدينة:

ضَاقَتْ بَلنْسِية بِـــي وذَادَ عَنِي غُمُوضِي

رَقَصَ البَرَاغِيثُ فِيهَا عَلَى غِنَاءِ البَعُوضِ[3]

فقد حرمته البراغيث التي كانت تستمتع بالرقص على غناء البعوض الكرى، ولذلك فقد ضاقت عليه المدينة وإنما ضيقه منها بسبب حشراتها هذه.

بَلَنسية بِينِي عَن القَلْب سلوة فإنَّك زهر لا أَحِن لِزَهْـــــــرِكِ

وكَيْفَ يُحِبُ المَرْءُ دَاراً تَقَسَمَت عَلى صَارِمي جُوعٍ وفِتْنَةِ مُشْرِكِ[4]

فبلنسية في نظر الشاعر زهر ولكنه لا يحن إليه إذ تقسمت هذه الدار حسبه بين معادلتي الجوع وفتنة الإشراك.

ننتقل بعد ذلك إلى شاعر جمع في قصيدة كاملة بين عديد من المدن الأندلسية في هجائه لها.

5. الجمع:

يجمع الشاعر الأديب "**أبي عامر بن الأصيلي**" في قصيدة طويلة بين مجموعة من المدن الأندلسية، وقبل عرض القصيدة نتعرف على صاحبها ورد عن الشاعر أنه:« كان جوابه آفاق، وناظماً وناثراً باتفاق، وله بيت شرف وسابقه سلف (...) وكان "أبو عامر"

---

[1]. نفسه، ج1، ص 490.

[2]. ابن سعيد، المغرب، ج2، ص 298.

[3]. السملالي، الإعلام، ج08، ص 114.

[4]. صفوان ابن إدريس، زاد المسافر، ص 136.

مشحوذ المدية في الكدية وهي التي بلغته بلاد النصارى»[1] ولذلك نجده يقول في إحدى قصائده عن مدينة "**قلمرية**":

قَلِقْتُ وحُقَّ بِأَنْ يَقْلَقَـــــا مَصُونٌ غَدا غَرضًا للشَّقَا

حَلَلْتُ بِلادًا كَسَتْنِي بِـــهَا يَدُ اللَّيثِ مِن سَقَمٍ يَلْمَـقَا

وَرَدتُ قَلْمَرِيَة طَامِـــــعًا فَلَم أَلْف بِرًا ولا مَرفَـــقَا

حُرِمْتُ كَأَنِي دُونَ الـــوَرَى طَلَبْتُ العُقُوقَ بِهَا الأَبْلَـقَا

ورُمْتُ الرُجُوعَ ومَن لِي بِه وقَدْ غَلَّقَ البَابَ مَن غَلَـقَا[2]

أما قصيدته التي يجمع فيها هجاء المدن الأندلسية بعد أن طاف ببعضها فيقول في بدايتها:

إِلَى أَيْنَ الفِرَارُ ولا فِـــــرَار ومَن لِي بِالقَرَارِ ولا قَـــرار

أَرَى الأوغَادَ يَعْتَمِـرُونَ دُورًا ومَالي فِي بِـــــلاَدِ الله دَارُ

إِذَا رَكِبُوا المَذَاكِي و المَطَايَا فَمَرْكُوبِي عَلَى شَرَفِي حِمَارُ

أَجُولُ فَلا أَرَى إِلَا رِعَاعًـــا كِبَارُهُم إِذَا اخْتُبِرُوا صِغَـــارُ[3]

يصدر الشاعر قصيدته بهذه الأبيات التي يقوم فيها بالمقارنة بينه وبين غيره إذ يرى أن الأوغاد والرعاع على حد تعبيره، والكبار الصغار في منظوره والذي يعد أشرف منهم، يسكنون الديار ويركبون المراكب الفارهة، وهو المبتلي بالتجول في بلاد الله وبركوب الحمار، ثم يبدأ في التهجم على المدن التي زارها بلاداً بلاداً فيقول:

"أَبَاجَة" لا وقَاكِ الله شَـــرًّا فَأَهْلُك أَهْلُ مَفْسَدَة شِـــرَارُ

"أَشِلْب" لا جَزَاكِ الله خَـــيْرًا فَلَا خَيْرَ لَديكِ ولا خِـــــيَارُ

"أشنْتمِيرية" قُبِحْـــــتِ دَارًا كُؤُوسُ المُخْزِيَاتِ بِـــهَا تُدَارُ

"أَشَلْطِيش" أَلا غَرَقٌ وَشِـيكٌ تَمُوجُ عَلَى ثَرَاكِ بِه البِحَـــارُ

---

[1]. ابن بسام، الذخيرة، ق3 م2 ، ص860.

[2]. نفسه.

[3]. ابن بسام، الذخيرة، ق3 م2 ، ص860.

"أأُونَبة" تَعَدَتكِ الغَـــــوادِي ولا هَطَلَت بِسَاحَتِك القِـــطَارُ

"ألُبة" كُنتِ صَالِحَة لكـــــن أَتى بن خَليفَة وأَتَى الشنَــارُ[1]

يستفتح الشاعر كل بيت بالدعاء على المدينة ثم يثنّي في الشطر الثاني بالسبب في الغالب إذ يدعو على "باجة" بالشر لأن أهلها أهل مفسدة وأشرار وعلى "شلب" بابتعاد الخير عنها لأنه لا يوجد بها على ،حد تعبيره، إلى غير ذلك من السلبيات التي رآها في هذه البلدان ويبدو أنه كان يروم فيها مصالح لم يطُلها ولذلك كانت هذه القصيدة يبوح فيها باستيائه منها ومن أهلها.

ثم يختم في الأخير بأبيات أخرى يقول فيها:

بِلادٌ عُرِيتْ مِن كُلِ خَيْـرٍ فَمَلْبَسُ أَهْلِهَا مَقْتٌ وعَـــــارُ

غلطت فزرتها فرأيت قوما منازلهم وإن عمرت قفـــــار

ترد علي أشعاري ويجفـى رسولي، والنباهة لي شعـــار

شتوت بها على كره فغطى على جدي ومعرفتي الغبـــــار[2]

بالإضافة إلى هجاء تلك المدن فرادى يعود في الأخير في بيت يجمع فيه بين كل تلك المدن، إذ أنها تخلو من كل خير، وأهلها يلبسون لباس الكراهية والدنية، وقد كانت زيارته لها غلطة ارتكبها، ولعل السبب الرئيس الذي أدى به إلى هذا الهجاء كونه لم يجد من يعتبر له مكانة أو من يلتفت له، نقرأ ذلك جليا في بيته ما قبل الأخير حين يقول أنها ترد عليه أشعاره بالرغم من أنه ذو عقل ونباهة.

[1]. نفسه.

[2]. ابن بسام، المصدر السابق.

نستنتج من خلال قراءتنا لهذه النماذج في هجاء المدن المغربية والأندلسية أن هذا الفن لم يكن غائبا في الأدبين المغربي والأندلسي كما كان سائدا من فهم، وخاصة إذا عرفنا أن أهم الكتب التي تؤرخ لأهم مرحلة من هذه المراحل قد تعفف صاحبها عن إيراد الهجاء فيه، ونقصد بذلك كتاب "**الذخيرة**" لابن بسام إذ أنه يذكر في بداية مقدمته أنه يصون كتابه عن مثل هذه الأنواع من الأشعار، وبالتالي يصبح الحكم بأن المغاربة كانوا يتعففون عن الهجاء، أو عن الهجاء الفاحش والمقذع حكم يشوبه الظن، وخاصة إذا عدنا بعد ذلك إلى بعض النماذج مثل أهاجي اليكي وأحمد بن فتح قاضي تاهرت، بل وحتى في الجانب النثري كما رأينا في رحلة العبدري.

والملاحظ عن هذا الفن أيضا أنه توفر في الجانبين الشعري والنثري، أما في النثري فقد ارتكز أكثر في فن الرحلات باعتبارها الفن الذي يعتمد على تصوير المدن بسلبياتها وإيجابياتها...

كما كان موجودا في المقامات أيضا؛ باعتبارها نوعا من أنواع الرحلة التي يقوم بها البطل، وباعتبارها أيضا تعتمد عل النقد الاجتماعي بالدرجة الأولى وإن اختلفت المقامة التي أدرجناها في هذا المجال، إذ اعتمدت مقامة "**معيار الاختيار**" على المفاضلة بين المدن وتصوير سلبياتها و إيجابياتها، وغابت فيها خصائص المقامة في العناصر والأسلوب القصصي والموضوع المعتمد في الغالب على الكدية.

وعلى هذا فإن أغلب الكتاب الذين خاضوا في هذا المجال لم يكن هجاؤهم للمدن التي ينتمون إليها بل تعرضوا للمدن التي كانوا يزورونها، وخاصة إذا لم يجدوا من حسن الاستقبال ما يريحهم من سفرهم أو لم يجزلوا لهم العطاء كما كانوا يتوقعون خاصة إذا كان الكاتب يقصد إلى ذلك أساسا ، وإن لم يتورع البعض عن التعرض لمدنهم وأهليهم،لنفس الأسباب تقريبا.

وقد تنوع هجاء المدن من الهجاء الطبيعي من حر، وقر، ورياح، وقد تعرض بعضهم حتى إلى الجانب الحضاري من وصف للمباني والدور والأوساخ وانعدام النظافة، وإلى الجانب الثقافي من عادات وتقاليد ومعاملات...

والملاحظ أن الإلمام بهذه الجوانب كان في النثر أكثر منه في الشعر، وذلك لطبيعة فن النثر الذي كان يعتمد على التنقل من مكان إلى آخر كما ذكرنا سابقا،ولحرص الرحالة على تسجيل كل الدقائق التي تصادفه، فأصبحت الرحلة بذلك أشبه بوثيقة تاريخية واجتماعية وثقافية إضافة إلى أدبيتها وفنيتها حول المدينة التي يتحدث عنها الكاتب.

الفصل الثالث: دراسة فنية وسميائية

- **المبحث الأول:** دراسة فنية شعرية
  - 1-1 الموضوعات والأساليب
  - 1-2 المستوى الإيقـــــاعي

- **المبحث الثاني:** دراسة سميائية نثرية
  - 2-1 هيكلة النص
  - 2-2 سميائية العنوان والنماذج العاملية
  - 2-3 التشاكل والتباين

ننتقل بعد تقصينا لنماذج من هجاء المدن في الفصل السابق إلى دراستها من جوانبها الجمالية.

سنستعين في المبحث الأول من هذا الفصل بالدراسة الفنية ، لننظر في ما حمله الجانب الشعري من فنيات وبماذا التزم الشعراء في جانب الموضوعات والأساليب التعبيرية، والتركيبية، المختلفة التي طرقها الشعراء وكذا نطرق المجال الإيقاعي بشقيه الداخلي والخارجي في هذه الأشعار لنتبين كيف تعامل الشاعر المغربي مع الإيقاع في هذا الموضوع.

ثم ننتقل بعد ذلك في المبحث الثاني إلى دراسة إحدى المقامات الأندلسية سميائيا، وهي "**المقامة البربرية**" وقد اخترنا هذه المقامة لأنها مقامة هجائية بالدرجة الأولى، يتعرض فيها البطل إلى هجاء وذم مدينة من المدن المغربية، ونتبين الفنيات القصصية التي اعتمدها صاحب المقامة من الجانب السميائي بدراسة النماذج العاملية والشخصيات وغيرها من العناصر المتعلقة بمجال هذا النوع من الدراسات.

المبحث الأول: دراسة شعرية فنية

1-1 الموضوعات والأساليب

عرفنا فيما سبق أن شعر هجاء المدن ظهر كفن جديد خلال القرن الثاني هجري وما كان ليتخذ متغيرا خاصا لو لم تظهر فيه خصائص تميزه عما يرتبط به في أصل الجذر، ألا وهو الهجاء وإنما نعت بالمدن لأن الموضوعات كانت لصيقة بأي شيء يمت إليها بصلة، فنلاحظ أن الموضوع قد تأصل وتميز في الآن نفسه ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما الذي ميز موضوعات وأساليب هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي؟

1-الموضوعات:

اختلفت موضوعات هجاء المدن في الأدبين المغربي و الأندلسي، إذ لم يرتبط الهجاء منذ بداياته الأولى بما ارتبط به الهجاء في المشرق، من عصبية قبلية أدت بالشعراء إلى هجاء القبائل، والذي كان وثيق الصلة بنفي الفضائل الأخلاقية عن المهجو والنيل من الأعراض، أما في المغرب فقد اختفت القبلية وصار الفرد أكثر ارتباطا بالمدينة التي ينتمي إليها لذلك توجه هذا التوجه المديني، و صار يرتكز على قسوة الطبيعية كشدة البرد، وحر القيض، ووعورة المسالك في بعض الأحيان وخاصة إذا كان الشاعر من الرحالة الذين تعودوا السير في أرض الله يقول "لسان الدين بن الخطيب" في "بيرة"[1] مثلا:

بِطَرِيقِ بِيرة أَجبل وعُقَـــابُ لا يَرتَجِي فِيها النَجَاة عقاب
فَكَأَنَّما المَاشِي عَلَيهَا مُذْنبُ وكَأَنَّمَا تِلكَ العُقاب عِقَـــاب[2]

كما يقول أيضا في "**شاط**"[3]:

---

[1]. هي بالإسبانية vera تقع شمال شرق مملكة غرناطة.
[2]. لسان الدين بن الخطيب، الديوان، ص320.
[3]. هي jete كانت من أعمال المنكب.

وَهَتْ مِنِّي القِوى بِطريقِ شَاط ودَارَ عَلى تَأَلُمِـــي الإزَارُ

فَلا سَنَّى الإلَهُ مَزَارَ شَـــاط إذا مَا شَاطٌ شَطَّ بِهَا المَزَارُ[1]

كما يقول "**بكر بن حماد**" في "تاهرت"[2]:

مَا أَخْشَن البَردَ و رَيْعَانُــه وأَطْرَفَ الشَّمْس بِتَاهَرْت

تَبْدُو مِن الغَيْمِ إذا مَا بَدَتْ كَأنهَا تُنشَر مِن تَخْـــتِ[3]

كما كان هجاء المدن لصيقا بهجاء أهلها سواء تعلق الأمر بالعادات والتقاليد أو بأخلاق أهلها، وغالبا ما ارتبط بذكر الأجناس، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أن المدن في هذه المناطق كانت خليطا من الإفرنج والعرب والمستعربين والبربر يقول "**اليكي**" في أهل "فاس" مثلا:

فِرَاقُ الهَّمِ عند خُروجِ فَاس لِكُل مَلَمة تُخْشَى وبَـــاسِ

فَأَمَا أَرْضُهَا فَأجَــلُّ أَرْض وأمَّا أَهْلُها فأخَسُ نَـــاسِ

بِلادٌ لَم تَكنْ وَطنًا لحُـــرٍ ولا اشْتَملتْ عَلَى رَجُل مُواسِي[4]

ويقول "**أبو عبد الله محمد**":

صِفَاقَس[5] **لا صَفَى عيشٌ لسَاكِنِها ولا سَقَى أرضَهَا غَيْثٌ إذا انسَكَبَا**

نَاهِيكَ مِن بَلدةٍ من حَّل سَاحتَها عَانَى بِها العَادِيين الرُومَ والعَرَبَا[6]

---

[1]. لسان الدين بن الخطيب، السابق، ص406.
[2]. مدينة مشهورة من مدن المغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان.
[3]. بكر بن حماد التاهرتي، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، تح: ص61.
[4]. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص122.
[5]. مدينة بالمغرب الأدنى بينها وبين قفصة ثلاثة أيام، وهي مدينة قديمة.
[6]. أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص69.

إلا أنه لم تغب تماما مضامين الهجاء القبلي فقد استحضرت تلك المعاني في بعض الأحيان من مثل قول "أبو العباس الجراوي":

يَا بن السَبِيل إذَا مَررتَ بِتَادلا[1] لا تَنْزِلَن عَلى بَني غَفْجُومِ

أَرْضٌ أغَارَ بها العَدُو فلنْ تَرى إلا مُجَاوِبة الصَّدَى للبُـومِ

قَومٌ طَوو ذِكر السَمَاحَة بَينَهُم لَكنَهُم نشَرُوا لِـواءَ اللَّـومِ

لا يَملكُونَ إذا اسْتُبِيحَ حَرِيمُهم إلا الصُّراخَ بِدعوةِ المظْلومِ[2]

غير أن ما يختلف في هذه الأبيات أن الشاعر من أهل هذه القبيلة فصار هجاءه بذلك أقرب إلى مواضيع الصعلكة:

يَا لَيتَني من غَيرهِم ولَو أَننِي مِن أرْضِ فَاس مِن بَنِي المَلْجُومِ[3]

كما قد ظهرت مضامين هجاء حول ضعف الإيمان، و المذاهب الإسلامية التي ظهرت في بعض المدن كقول "لسان الدين بن الخطيب":

مَكنَاسة[4] حُشِرت بِها زُمرُ العِدا فَمدَى بَريد فِيه أَلف مُـــــريـــدِ

مِن وَاصلٍ للجُوعِ لا لِريَاضَـــــة أو لابِسٍ للصُوفِ غَيرُ مُريـــــدِ

فإذا سَلَكتَ طَرِيقَهَا مُتصـــــوفًا فَانْوِ السُلُوك بِهَا عَلى التَجْرِيـــدِ[5]

ويتعرض في بعض أبياته إضافة إلى ذم العقائد إلى إلصاق صفة الحمق و الغباء بأهل المدينة:

---

[1]. تادلى من بلاد المغرب وهي مدينة قديمة أزلية.
[2]. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص514، ينظر أيضا أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، ص356، وفيه نزلت بدلا من مررت.
[3]. نفسه.
[4]. هي بالإسبانية Mequinez، تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60كم بالمغرب الأقصى.
[5]. لسان الدين بن الخطيب، الديوان، ص340.

مَن طَلَبَ الود مِن سَلَاوي[1]   أَنشَأهُ الله مِن مَسَـــــاوي

هَاويَة أمُه وفِيـــــــــهَا   أَبوهُ من بَعدِ ذلك هَـــاوِي

رَاوِية الفَضْل فِي انقِطَاع   عَنهمْ إذا مَا فَرضــت رَاوي

حُمقًا فَمَا شئت من دِمَاغ   قَد عُدِم المُخ فَهُو خَـاوِي[2]

ومن المضامين التي صارت تستهوي الهجائين أيضا ذكر ما يعانون من حشرات المدينة وهذا منه كثير، إذ صار بعضهم يرسم صورا هجائية هزلية في هذا الموضوع ويتفنن في الوصف ومن ذلك قول" **لسان الدين**" أيضا:

بِتَافَلفَلتْ[3] بَرغُوثٌ كَثيـــــر   يَضُجُّ لِهَولِه المَلك الأثِيرُ

إذا عَجَّل لنَا بِالوَثْب قُلْنا   أثَارَ جَرادُ مَزْرَعَة مَثِيـــــرُ[4]

وقوله:

إذا مَرَرْت بِوادِي الآشَا[5]   فَقُل رَب مِن لَدغَةٍ سَلِــم

وكَيف السَلامَةُ فِي مَنزِلٍ   فِيه عُصْبَة مِن بَنِي أَرقَم[6]

كما يقول "**الحصري**":

ضَاقتْ بَلنسية بِـــــي   وذَادَ عَنِي غُمُوضِي

رَقَصَ البَراغِيثُ فِيهَا   عَلَى غِنَاءِ البَعُـوضِ[1]

---

[1]. نسبة إلى أهالي سلا.
[2]. ابن الخطيب، الديوان، ص306.
[3]. مدينة من إقليم تامنسا في بلاد المغرب.
[4]. ابن الخطيب، الديوان، ص380.
[5]. مدينة تقع شمال شرق غرناطة تبعد عنها بنحو 55كم.
[6]. ابن الخطيب، الديوان، ص210.

ومثل قول "**الشفشاوني**" الذي يذكر أنواع الحشرات الموجودة في مدينة مراكش ويخص بالذكر العقارب:

أظَلُّ فِي نَصَب مما أكَابِد مِـــن نَفضِ الغُبَارِ ومِن طَرَدِ الذَبَابِينِ

وطُولُ لَيْلِي فِي كَرٍ وفِي تَعـــبٍ مَابَينَ بَقٍ ونَامُوس يُنَاغِينِـــي

أَبيتُ أحرسُ فَرشِي من عَقَارِبهَا والقَلبُ فِي فِكرٍ مِنهَا وتَخميـــنِ

إذا رأيْتُ سَواد مَرَّ بِي وأتَـــى ظَنَنْتُهُ عَقربًا دَبَتْ لِتُؤْذِينِـــي[2]

هذا عن مجال المضامين الذي كان له علاقة بذكر الحياة المعيشية في المدينة وبكل سلبياتها، ونلاحظ أن الشعراء قليلا ما كانوا يتعرضون إلى ما هو سياسي بقدر ما نالوا في موضوعاتهم من أهالي المدن ومن ذكر السلبيات الطبيعية فيها.

2- الأساليـــب:

وقد كانت اللغة التي استعملها الشعراء في ذم المدن مباشرة وتقريرية واضحة، وإن كان الهجاء على العموم، دائم الارتباط بهذا النوع من اللغة، والهدف من وراء ذلك النيل من المهجو، حتى يكون الشعر المنسوج في ذمه تلوكه ألسنة العامي كما المثقف، وتحفظه القرائح ولعلنا ندرج بعض الأمثلة ليتضح الحال. يقول أحد الشعراء في مدينة "سرت":

يَا سِرت لا سُرَتْ بِك الأنْفُس لِسَانُ مَدْحِي فِيكُم أَخْرَسُ

أُلْبِسْتُم القُبْحَ فَلا مَنْظـــــر يَرُوقُ مِنْكُم لَا وَلَا مَلْبَسُ[3]

[1]. العباس السملالي، الإعلام، ج08، ص 114.

[2]. أحمد ابن قاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص413 .

[3]. العبدري، الرحلة المغربية، ص202.

يتحدث الشاعر عن غياب سرور النفس، وانعقاد اللسان في المدح، والقبح، في لغة مباشرة وواضحة لا غموض فيها ولا موارة.

كما يقول "**بكر بن علي الصابوني**" أيضا:

كُلُ سُوسِي بِسُوسَـه نَفْسُه نَفسٌ خَسِيسَه

بَعِضُهم يَنْهشُ بَعضًا ككِلابٍ فِي فَرِيسَـــة[1]

أما عن الألفاظ فقد عمد الشعراء الهجاؤون إلى انتقاء المناسبة منها للهجاء كالرداءة، الخرس، النجس، اللعن، السوء، النقص، القبح، اللؤم... ويذهب كثير من النقاد إلى القول أن الشعراء المغاربة كانوا يأنفون استعمال الكلمات النابية في أشعارهم الهجائية، وهذا ما يمكن أن نفنده، إذ الحكم لا يبنى على الإطلاق مادام بن بسام الذي يؤرخ لأطول مدة زمنية من الأدب الأندلسي في كتابه الذخيرة، قد تعفف عن ذكر كل ما يتعلق بالهجاء وصان كتابه عن إيراده. كما يمكننا القول بأنه قد صادفتنا الكثير من الألفاظ النابية التي تجعل من الهجاء مقذعا وسبا فاحشا، وخاصة إذا عدنا إلى أشعار اليكي مثلا، و من ذلك أيضا قول "**أحمد بن فتح**" قاضي تاهرت في أهل" فاس":

إِسْلَح عَلَى كُل فَاسِي مَرَرتَ بِهِ بِالعُدوتَينِ مَعًا،لا تُبْقِيَنَ أَحَدا[2]

ومن الأساليب الإنشائية التي اعتمدت في هجاء المدن أيضا الدعاء على المدينة أو أهلها واللعن، فقد اتخذ بعض الشعراء هذا الأسلوب ليفرغوا طاقتهم النفسية الهجائية ويزيدوا الهجاء قدرة على العبير وإيصال أفكارهم. من ذلك قول أحدهم:

فَمَتَى تَلعَن بِلاَدًا مَرَةً فاجْعَل اللَّعْنَة دَأْبَا لِتنس[3]

[1]. ابن رشيق، حسن القيرواني،أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1406هـ - 1986م، ص98.

[2]. ياقوت الحموي، المعجم،ج4، ص230.

[3]. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص 61.

وقال "المخزومي الأعمى" أيضا:

عَلَى أَهْل مُرسِية لَعنَةٌ تَعُمُّ الدِّيَارَ وأَرْبَابَهَا[1]

ومن الدعاء على المدن قول "لسان الدين بن الخطيب":

لا جَادَكِ الغَيثُ إذا مَا سَقَى غيثٌ بِلادَ الله يَا بَلذُوذُ[2]

وقوله أيضا في أهالي مدينة سلا:

قَبَحَهَا الله مِن وُجُوهٍ أدْحضَهَا الله مِن دَعَاوى[3]

أما عن الصور البيانية فقد استعملت بعضا منها وإنما كان الهدف منها توضيح المعنى في ذهن السامع وتعميق شدة الهجاء ووقعه من مثل قول الشاعر "بكر بن حماد"

نَفْرَحُ بِالشَّمْسِ إذَا مَا بَدت كَفَرحَة الذِمِّي بِالسَبتِ[4]

وكقول الأديب لسان الدين بن الخطيب في إحدى المدن:

مَنَارهَا قَعدَ البَانِي بِنصبَتِه فَلَا تُثِيرُ إلَيكَ عَيْن مُغْتَبِـــــــــطِ

كأنَهُ فِيشَة جَاءُوا لِقلفَتِهَا بِخَاتِن قَطَ مِنْهَا النِصْف عن غَلَطِ[5]

كما يقذف أبو بكر بن مجبر مدينة "قفصة" بالزنا في تشبيه بالمرأة الفاجرة:

تِلكَ البَغِي التِي خَانَت فَحَاقَ بِهَا وبالزُنَاة بِهَا رَجْمٌ وتَغْرِيبُ[6]

---

[1]. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص118.
[2]. ابن الخطيب، الديوان، ص365.
[3]. نفسه، ص306.
[4]. بكر بن حماد، الدر الوقاد، ص61.
[5]. ابن الخطيب،الديوان، ص13.
[6]. التجاني أبو محمد، رحلة التجاني، ص139.

ويستعين "أبو عبد الله محمد" في هجائه لمدينة "صفاقس" باستعارة جمالية من طبيعة المنطقة ومن ظاهرة المد والجزر البحرية فيقول:

وُلِيتُها فَتَوَلَتنْي الهُمومُ وقَـــــدْ لَقِيتُ من سَفَرِي في أَرْضِهَا نَصَبَا

قد عَايَنَ البَحرُ قُبْحًا فِي جَوانِبِهَا فَكُلَمَا هم أنْ يَدْنُوا لَهَا هَـــــرَبَا[1]

كما وظف بعض الشعراء الأسلوب الحكائي ومعلوم أن الحكي أسرع الفنون التصاقا بالذهن يقول "الجراوي" مثلا:

مَشَى اللؤْمُ فِي الدُّنيَا طَرِيدَا يَجُوبُ بِلادَ الله شَرْقًا ومَغْرِبَــا

فَلَمَا أَتَى فَاسًا تَلقَّاهُ أَهْلُـــهَا وقَالُوا لَهُ: أَهلًا وسَهْلا ومَرْحَبَا[2]

لعبت الصور البيانية على العموم دورا كبيرا في تقريب الصورة إلى المتلقي، وساعدت الشاعر في الإمعان في الهجاء، كما ساهمت كثيرا في بعث روح السخرية في الشعر الهجائي.

ننتقل بعد هذه القراءة السريعة في المضامين والأساليب إلى الإيقاع للنظر فيما كان يؤثره الشعراء الهجائين في هذا الجانب.

[1]. نفسه، ص69.
[2]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص137.

1-2 الإيقاع في فن هجاء المدن

1-الموسيقى الخارجية:

المعلوم أن للإيقاع دور كبير في جعل النص الشعري أكثر تأثيرا وأسهل تداولا، ولذلك نجد الشعراء يتخيرون من الإيقاع الشعري ما يناسب موضوعاتهم، وإذ قمنا بفحص للأوزان التي أدرجت في موضوع هجاء المدن نجد أن الأوزان الخفيفة الإيقاع كانت الأكثر انتشارا، مثل البسيط والسريع ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

صفَاقَس لَا صَفَى عَيْشٌ لِسَاكِنِهَا ولا سَقَى أَرْضَهَا غيثٌ إذَا انْسَكَـــبَا

نَاهِيكَ مِن بَلْدَةٍ مَن حَلَّ سَاحَتَهَا عَانَى العَادِيَين الرُّومَ والعَـــــــرَبَا

كَمْ ظَلَّ فِي البَرِّ مَسْلُوبَا بِضَاعَته وبَاتَ فِي البَحْرِ يَشْكُو الأسْرَ والعَطَبَا[1]

ومثل قول "**عثمان بن عبد الله القيسي السلالجي**"(609):

خُذُوا ضَمَانِي ألا تُفْلِحُوا أَبَدَا ولَوْ شَرِبْتُمْ مِدَادَ الكُتب بِالصُّحُـــفِ

أَنْتُم صِغَارٌ كِبَارٌ عِندَ أَنْفُسِكُم لا يَهْتَدِي مَنْ يَقِيسُ الدُرَّ بِالصُّدَفِ[2]

وفي مخلع البسيط أنشد "أبو عبد الله بن ياسين شاطبي":

شَاطِبَة قَرْيَة ظَنِينَـــــة لَيْسَتْ لِمَن أَمَهَا مُعِينَـــة

تَهْتَضِمُ الطَّيِبَ اهْتِضَامَا وَتَأْنَفُ الدَّهْرَ أَنْ تُعِينَـــه

والخُبْثُ المَحْضُ تَصْطَفِيهِ ضِدًا لِمَا جَاءَ فِي المَدِينَة[3]

---

[1]. التجاني أبو محمد، رحلة التجاني، ص139.
[2]. العباس السملالي، الإعلام، ج9، ص60.
[3]. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص137.

ومن الأوزان التي رآها الشعراء مناسبة للهجاء السريع إذ نجد الكثير منهم نظموا قصائدهم على منواله ونستحضر هنا قول الشاعر في "تنس":

أَيُهَا السَّائِلُ عَنْ أَرْضِ تنس مَقْعَدُ اللُؤْم المُصَفَّى والدَّنَس

بَلْدَةٌ لا يَنْزِلُ القَطْرُ بِهَـــا والنَّدَى فِي أَهْلِهَا حَرْفٌ دَرِس[1]

وقول "لسان الدين بن الخطيب" في مدينة "سلا":

أَهْلُ سَلاَ صَاحَتْ بِهِمْ صَائِحَة غَادِيَةٌ فِي دُورِهِم رَائِحَـة

يَكْفِيهِم مِنْ عَوَزٍ أَنَّهُـــــمْ رَيْحَانُهُم لَيْسَتْ لَهُ رَائِحَة[2]

ولم يكتف الهجاؤون بالأوزان الخفيفة المناسبة عادة لغرض الهجاء بل نظموا إضافة لذلك في غيرها ومن ذلك البحر الطويل حيث يقول أحمد المقري:

دَخَلْتُ بِلاَدَ الله شَرْقًا وَمَغْرِبَا فَلَم تَرَ عَيْنِي مِثْلَ بِسْكَرَة يَبَسَا[3]

وقول "**أبو عنان**" فيها أيضا وفي نفس البحر:

وَيَا قُبْحَ مَا اِسْوَدَ القِتَامَ بِوَجْهِهَا فَمُذْ غُشِي الإبْصَارُ لَمْ تُبْصِر الشَّمْسَا

فَخُسْرًا وسُحْقًا لابْنِ هَانئ لَقَدْ غَوَى بِمَدْحِ بِلاَد الزَّابِ إذْ عُدِمَ الحِّـــــسَا[4]

وفي الكامل يقول "**الجراوي**":

يَا بن السَّبِيلِ إذا مَرَرْتَ بِتَادِلَا لا تَنْزِلَنَّ عَلَى بَنِي غَفْجُومِ

أَرْضٌ أَغَارَ العَدُو بِهَا فَلَن تَرى إِلَا مُجَاوَبَة الصَّدَى لِلْبُومِ[1]

---

[1]. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص 63.

[2]. ابن الخطيب، الديوان، ص259.

[3]. النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح: محمد بن شقرون، ط1 دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م، ص441.

[4]. نفسه.

وعلى الرغم من ذلك يبقى توظيف الأوزان الخفيفة مثل البسيط والسريع أكثر تداولا لأن موضوع الهجاء يتطلب هذا النوع من البحور الشعرية إذ يستطيع الهجّاء أن يجمع كل خواطره وصوره الكاريكاتورية، ويخرجها بأسلوب خفيف سهل الحفظ والتداول، وأكثر تأثيرا في نفوس المتلقين له، كما أن الملاحظ على العموم، أن الشعراء اعتمدوا أكثر على المقطوعات الشعرية وقلما ما نجد من كتب قصيدة كاملة في موضوع هجاء المدن.

2-الموسيقى الداخلية:

كما أن للموسيقى الداخلية دور كبير في اللعب على أوتار النص، وكثيرا ما عمد الشاعر المغربي إلى التلاعب ببعض الألفاظ وتكرار بعضها الآخر، كما نجد أيضا تكرارا لبعض الأصوات أكثر من مرة في المقطوعة الواحدة ولنتأمل مثلا حرف القاف في هذه المقطوعة الصغيرة:

قَلِقْتُ وحُقَّ بِأَن يَقْلقَـــا مَصُونٌ غَدَا غَرَضًا للشَّقَا

حَلَلْت بِلادًا كَستْنِي بِهَا يَدُ اللَّيثِ من سَقَمٍ يَلْمَــقَا

وَرَدْتُ قَلْمَرِيَةَ طَامِعًــــا فَلَم أَلفِ بَرًا وَلَا مَرْفِـــــقَا

حُرِمْتُ كَأَنِّي دُونَ الوَرَى طَلَبْتُ العُقُوقَ بِهَا الأبْلَقَا[2]

تتضح هذه الأبيات بالقلقلة التي أكسبت المقطوعة نغما موسيقيا خاصا جعلت المعاني تغيب نوعا ما وراء الصخب النغمي الذي أحدثه تكرار حرف القاف ثلاث عشرة مرة خلال أربعة أبيات فقط.

وقس على ذلك أيضا تكرر صوت الراء في هذه المقطوعة:

إِلَى أَيْن الفِرَارُ ولا فِـــــرَارَ ومَن لِي بِالقَرَارِ ولا قَـــرارُ

---

[1]. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص514.

[2]. ابن بسام، الذخيرة، ق3، م2، ص860.

أَرَى الأَوْغَادَ يَعْتَمرونَ دُورًا ومَالِي فِي بِلادِ الله قَــرَارُ

إذا رَكِبُوا المَذَاكِي والمَطَايَا فَمَركُوبِي عَلَى شَرَفِي حِمَارُ

أَجُولُ فَلا أَرَى إِلَا رِعَــاعًا كِبَارُهمْ إِذَا اخْتُبِرُوا صِــغَارُ

أَبَاجَةُ لا وَقَاكِ الله شَــرًا فَأَهْلُكِ أَهْلُ مَفْسَدَةٍ شِــرَارُ[1]

فقد تكرر حرف الراء أكثر من ثلاث وعشرين مرة، والراء كما هو معلوم حرف تكراري منح بتعدده في هذه المقطوعة نغما موسيقيا عذبا.

أما بالنسبة لتكرار الألفاظ فنجد ذلك عند بعض الشعراء، يقول إبراهيم بن محمد الأصيلي:

دَخَلْتُ فَاسًا وبِي شَوقٌ إِلَى فَاسٍ والحين يأخذ بالعَيْنَيْنِ والــرَاسِ

فَلَسْتُ أَدْخُل فاسًا مَا حَييتُ ولَو أُعْطِيتُ فاسًا بِما فِيهَا مِن النَّاسِ[2]

ونجد هذه الخاصية تتكرر أكثر عند "لسان الدين بن الخطيب" فنجده يقول مثلا:

بِطريقِ بِيرةَ أَجبل وعُقــابُ لا يرتجي فيها النجاة فيها عقابُ

فَكَأَنَّمَا المَاشِي عَلَيْهَا مُذنِبُ وكَأَنَمَا تِلكَ العُقابُ عِقــــابُ[3]

ويقول أيضا:

وَهتْ مِنِي القِوى بِطريقِ شَاطٍ ودَارَ عَلَى تَأَلُمِــي الإِزَارُ

فلا سَنَّى الإِلَه مَزَار شــاطٍ إذا مَا شاطٌ شَطَّ بِها المَزَارُ[4]

---

[1]. ابن بسام المصدر السابق، ص861.
[2]. معجم البلدان، ج4، ص230.
[3]. ابن الخطيب، الديوان، ص320.
[4]. المصدر السابق، ص406.

ويقول في "**غيضة وحش الليل**" من ثغر "**لوشة**":

بِغِيضَة وَحش اللَّيلِ خَوفٌ ووحشَةٌ كَأَنَّ فُؤَادِي وَحْشَةٌ قَدْ أَعَــارَهَا

ولَكِنَّ هَذِي أَقْفَرتْ مِن أَنِيسِـــــهَا وَغِيضُةُ قَلْبِي يَسْكُنُ الهَمُ دَارَهَا[1]

يتلاعب "لسان الدين بن الخطيب" في هذه الأبيات بتكرار بعض الكلمات ويستعين في ذلك بتنوع معانيها فيكسب مقطوعاته إيقاعا يسهل حفظها وتأثيرها في المتلقين لها.

[1]. نفسه، ص407.

المبحث الثاني : دراسة سميائية للمقامة البربرية

انتشر النثر الفني الأدبي في ربوع المغرب والأندلس وكما تأثر المغاربة في أشعارهم بالمشرق في بداية الأمر تأثروا أيضا بنماذج وصلتهم من المشرق في الفنون النثرية وحاكوها ،مع الحرص على ترك بصماتهم واضحة في أعمالهم « أصبح التراث المشرقي لدى الناثر الأندلسي يضم طرائق سهل بن هارون والجاحظ وكتاب القرن الرابع وبخاصة بديع الزمان، ثم رسائل المعري ومقامات الحريري، وفي باب الخطب أصبحت خطب ابن نباتة هي النموذج الرفيع الذي يحتذى، وكاد كل كاتب يجد أنموذجه المفضل لدى واحد أو غير واحد من كتاب المشارقة، لكن لا ينكر استقلال الكتاب في الجزئيات»[1]، فالتأثر كان شاملا لجميع أشكال وفنون النثر الأدبي على اختلافها من رسائل وخطب ومقامات.

أما حديثنا في هذا الباب فيختص بفن المقامات النثري الذي عرف هو الآخر انتشارا واسعا في البلاد المغربية، وقد انتقل كفن أدبي مكتمل من المشرق إلى المغرب عن طريق الرحالة الذين كانوا يسعون إلى نشر كل ما هو جديد في ربوع المغرب التابع دينا ولغة وثقافة – رغم الاختلاف– إلى المشرق العربي فعرفت هذه المقامات طريقها إلى الكتاب والأدباء واختلفت طرق تناولها من بين شارح، ومقلد، ومحاكي، ومعارض، وقد بدأت هذه الحركة مع مقامات بديع الزمان الهمذاني لتنتقل بعد ذلك إلى مقامات الحريري ولكن« الاهتمام بمقامات الحريري حين ظهرت كان أشد، إذ أقبل الكتاب على معارضتها ومنهم بن شرف القيرواني، ولعل سر ذلك راجع إلى الصلة بين بعض الأندلسيين والحريري، فقد وجد منهم من سمع منه مقاماته»[2].

وقد أنتج المغاربة بعد ذلك عديد من المقامات وأبدع في ذلك عديد من الأدباء أمثال "ابن شهيد"، و"ابن شرف"، و "الوهراني" ولكن المقامات المغربية بعد ذلك صارت لها

[1]. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دط، دار الشروق، عمان، 1997، ص228.
[2]. نفسه، ص243.

خصائص تميزها كما ذكرنا سابقا إذ اختفت في بعضها مثلا موضوعة الكدية كما رأينا في الفصل السابق مع مقامات "لسان الدين بن الخطيب"، وإضافة إلى ذلك أصبحت بعض المقامات « صورة من رسالة يقدمها شخص بين يدي أمر يرجوه أو أمل يحب تحقيقه، كما أن كثيرا من المقامات الأندلسية أصبحت وصفا للرحلة والتنقل في داخل البلاد الأندلسية، وفي هذا أيضا شاركت الرسالة ، وكان بعضها يمثل الاتجاه النقدي أو مواقف المنافرة ، أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل والمدح والهجاء...»[1] فالمقامة قد عرفت تداخلا كبيرا مع بعض الفنون النثرية الأخرى، وهذا التداخل سيؤدي حتما إلى التغير في مكوناتها السردية ،كالعقدة والشخصيات والسرد ونلحظ ذلك جليا في مقامة " لسان الدين بن الخطيب" السابقة، إذ أنه بالرغم من محافظته على عنصر الشخصيات المقامية من راوي وبطل، إلا أن المقامة في مجملها حديث عن المدن ووصف لها ولا أثر فيها لقصة أو عقدة أو عناصر درامية.

السرقسطي والمقامات اللزومية:

صاحب المقامات اللزومية هو شاعر وأديب، وقد ورد في تعريفه في كتاب الصلة « محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي من أهل سرقسطة سكن قرطبة، يكنى أبا الطاهر صاحبنا، سمع من أبي علي الصدفي كثيرا،ومن أبي محمد بن ثابت، وأبي عمران بن تليد وأبي محمد بن السيد، وبقرطبة ، و إشبيلية من غير واحد من شيوخنا، وكان مقدما في اللغة والعربية،شاعرا محسنا، وله مقامات من تأليفه، أخذت عنه واستحسنت»[2]

كما ورد في كتاب الإحاطة تعريف يورد فيه صاحب الكتاب إضافة إلى نسبه تاريخ وفاته« محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني من أهل "سرقسطة"، ودخل "غرناطة"، وروى عن "أبي الحسن بن الباذش" بها يكنى أبا الطاهر وله المقامات اللزوميات المعروفة، كان كاتبا لغويا شاعرا معتمدا في الأدب فردا متقدما في ذلك في وقته،وشعره

[1]. إحسان عباس، المرجع السابق، ص247.
[2]. ابن بشكوال، الصلة، مكتبة الثقافة الدينية،ط1، القاهرة(مصر)، 1429هـ - 2008م، ج2، ص224.

كثير مدون، توفي بقرطبة ظهر الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وخمسماية بزمانة لازمته نحوا من ثلاثة أعوام، رفعه الله»[1]

وقد أورد له لسان الدين بن الخطيب بعضا من أشعاره منها:

أيا قمرا أتطلع من وشـــاح على غض فاخر من كل راح

أدار السحر من عينيه خمرا معتقة فأسكر كل صـــــاح

وأهدى إذ تهادى كل طيـب كخوط البان في أيدي الرياح[2]

وواضح أن لقب السرقسطي نسبة إلى بلاده، التي نشأ بها ولم يرد عن تفصيل حياته في طفولته شيئا غير أنه من خلال التعاريف السابقة يظهر لنا أنه كان يأخذ العلم بالسماع من العلماء والتجوال في البلاد الأندلسية، ومما يلاحظ أنه اكتفى في ذلك بالبلاد الأندلسية خلاف طلاب العلم في زمانه الذين كانوا يقصدون البلدان المشرقية، ومع ذلك فقد كان راسخا في العلم والأدب حتى أن بن الزبير اعتمد عليه في تفسير الكامل للمبرد ولرسوخه في اللغة العربية[3].

المقامات اللزومية:

تعتبر المقامات اللزومية من أهم المصنفات الأندلسية في هذا المجال إذ لم يعهد على أديب كتب في هذا الفن أن يزيد عن مقامة أو اثنتين أو بضعا، إلا "السرقسطي" الذي ألف ما يربو عن الخمسين مقامة احتذاء "بالحريري"، والواضح من منطلق العنوان أنه قد لزم فيها مالا يلزم على غرار "أبو العلاء المعري" في لزومياته الشعرية.

كما جرى "السرقسطي" فيما يخص الشخصيات مجرى الحريري أيضا من اعتماد على بطل المقامة وراويه و« الشخصيتان الرئيستان في المقامات هما "السائب بن تمام" والشيخ "أبو حبيب" وهو رجل سدوسي محتال أصله من عمان، وأحيانا يذكر في المقامات

[1]. ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص224.
[2]. نفسه.
[3]. ينظر إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 254.

شخص ثالث اسمه "المنذر بن حمام"، ولا دخل له في أحداث المقامة، وإنما هو راوية يتلقى حديث المقامة عن "السائب بن تمام" الذي يكنى "بأبي الغمر" ويتدخل في قصة المقامة أحيانا فتيان هما ابنا الشيخ السدوسي – أو أحدهما– والأول منهما "حبيب" والثاني "غريب"»[1]

لم يكتف الأديب إذا بشخصيتين رئيستين فقط بل زاد إلى ذلك شخصيات ثانوية تظهر أحيانا على ساحات بعض المقامات لتحريك أحداثها، كما نرى أن الأديب لم يبتعد عن الموضوعة الرئيسة التي بنيت على أساسها المقامات سواء لدى الهمذاني أو الحريري وهو الكدية والاحتيال.

وتختلف المقامات اللزومية في عناوينها، فمنها ما اكتفى كاتبها بترقيمها التسلسلي، ومنها ما كانت تثنى بعنوان زيادة على ذلك،« وسمى بعضها كالسابعة فإن اسمها البحرية وسميت ثلاث أخر بنوع السجع السائد على كل واحد منها فواحدة تسمى المثلثة لأنها بنيت على ثلاث سجعات، وأخرى تسمى المرصعة لتقابل عبارتها في سجعتين وثالثة تسمى المربعة لتقابل كل عبارتين منها في ثلاث سجعات، أما المقامات الأخرى التي لها عناوين فهي الثامنة والعشرون وتسمى "الحمقاء" والموفية الثلاثين وهي مقامة الشعراء والحادية والأربعون وهي مقامة "الدب"[2] والتي تليها وهي الفرسية والثلاث التاليات وهي مقامة الحمامة، والمقامة العنقاوية والمقامة الأسدية والأخيرة وهي مقامة في النظم والنثر، وقد اتبع السرقسطي في كل مقامة من المقامات طريقة خاصة في السجع فبنى خمسا منها على الحروف فهناك الهمزية والبائية والجيمية والدالية والنونية، ثم بنى اثنتين على نسق أبجد وهذه المقامات هي أشد مقاماته تصنعا وتكلفا»[3]

فالتنويع في العناوين كان مرتبطا بالمواضيع وبطريقة الكتابة وهذا ما ميز مقامات السرقسطي عن غيره من المغاربة و المشارقة .

---

[1]. إحسان عباس، المرجع السابق.

[2]. الرقم واحد وأربعون عنوانه المقامة البربرية في المقامات اللزومية بتحقيق حسن الوراكلي.

[3]. إحسان عباس، المرجع السابق، ص255.

2-1 هيكلة النص

بنية الاستهلال:

يبدأ النص شأنه شأن المقامات عند "بديع الزمان الهمذاني" و"الحريري" ببنية الاستهلال السردي، لتشكل هذه البنية مقدمة يلج من خلالها الكاتب إلى النص، ويسلم من خلالها الراوي الأحداث إلى بطل المقامة.

فالمقامات من هذا المنظور تستحضر العرف التقليدي القديم السائد في نسب الحديث أو القول إلى أشخاص معينين، وإن كان النسب قد ارتبط في الغالب بشخصيات معلومة خاصة إذا تعلق الأمر بمجال الحديث النبوي الشريف في الحضارة الإسلامية قبل انتشار فكرة التدوين بادئ الأمر، وإنما اعتمدت هذه الطريقة بسبب الثقافة الشفاهية والسماعية آنذاك.

غير أن المقامات اعتمدت في الغالب الأعم على رواة مجهولي الهوية « وكما قام الهمذاني/ الراوي المجهول، بافتتاح مقاماته بجملة الاستهلال السردي: حدثنا عيسى بن هشام، وكما تبعه الحريري في ذلك في مقاماته بافتتاحها بجملة: حدث أو حكى أو روى أو أخبر الحارث بن همام»[1] نجد السرقسطي نهج نفس النهج في هذه المقامة واستفتح مقامته بقوله:« قال السائب بن تمام»[2] وهو شخصية مجهولة أيضا، فالتقليد والتأثر في هذا الموضع واضح جدا وهذا يؤكد مدى امتزاج الثقافة المغربية بأختها المشرقية في الفنون النثرية.

[1]. الغزالي عبد الله محمد، المنجز السردي العربي القديم ، مكتبة آفاق، ط1،الكويت، 1432هـ- 2011م، ص81.
[2]. السرقسطي أبو طاهر محمد بن يوسف، المقامات اللزومية، تح: حسن الوراكلي ، عالم الكتب الحديث،ط2، إربد(الأردن)، 2006م، ص385.

الشخصيات:

وكأي فن شبيه بالقصة ترتكز أغلب المقامات على شخصيات تقوم بأدوار تحرك الأحداث، وتعيش في زمان ومكان معيين، وما ميز المقامة على العموم وجود شخصيتين واحدة منهما تختفي مع بنية الاستهلال السردي وأخرى تواصل لعب دور البطولة فيها، وقد قام "السرقسطي" بافتتاح مقامته بذكر أول شخصية في المقامة وهو الراوية المدعو" السائب بن تمام" وهو راوية مجهول على غرار أغلب المقامات وكما افتتح الهمذاني مقاماته بالراوية "عيسى بن هشام"، والحريري "بالحارث بن همام"، قام "السرقسطي" بإسناد الرواية "للسائب بن تمام" ويظهر جليا تأثره بمن سبقه في هذا الميدان إذ سيتحضر نفس البنية الاستهلالية بشخصية مجهولة وبنفس الصيغة الصرفية للاسم، إلا أن ما نلحظه في هذه المقامة أن "السائب بن تمام" لا يقوم برواية أحداث المقامة التي وقعت لشخصية البطل بل يعتبر هو البطل الذي قام بالدور الرئيسي في هذه المقامة إلى جانب شخصية "أبو حبيب" المحتال. هو الراوية والبطل في نفس الوقت إذ أنه كان يعيش الأحداث التي وقعت له في مدينة "طنجة" المغربية حين وجد نفسه بين أقوام غرباء، لباسا، ولغة، وعادات...

وتظهر لنا شخصية "السائب" من بداية المقامة شخصية أدمنت السفر والتنقل، إلا أنها تعيش نوعا من الاضطراب، إذ تسبب عدم استقراره المكاني إلى انعدام استقراره الوجداني ويظهر ذلك في قوله« **مازلت أجول في المشارق والمغارب وأغرى بالمساري والمسارب حتى اشتكتني الذرى و الغوارب، وملتني الطوالع و الغوارب، وحتى قذفتني الأيام إلى بلاد طنجة...**»[1] وواضح من خلال قوله قذفتني "الأيام إلى بلاد طنجة" أن هذه المدينة جاءت عرضا في سفره و ما كانت مقصودة لذاتها ولكن ساقه إليها القدر المحتوم، إذ أنه كان يقصد السفر إلى الأندلس فلابد له من المرور من هذه المدينة التي تربط بينها وبين المغرب.

[1]. السرقسطي، المصدر السابق.

أما الشخصية الثانية في هذه المقامة والتي تقتسم البطولة مع "السائب" بن تمام فهو "أبو حبيب" التي يقدمها لنا "السائب" كشخصية ممتزجة امتزاجا كليا مع طبيعة أهل البلاد، يجيد فن التواصل معهم والحفاظ على مكانته بينهم، ويقوم هو أيضا بتقديم نفسه في هذه المقامة بالوجه الذي يرتضيه، فهو شخصية ذكية محتالة تتواجد في المكان المناسب الذي تستطيع من خلاله كسب القوت وفنون الاحتيال في ذلك، دون أن يكتشف أمره سواء كان هذا المكان قفرا أو مدينة أو غيرهما يقول "السائب" مثلا « **فقلت: دواليك دواليك، وإليك عني بالمعتبة إليك، أحتى في البرابر الدهم، وبين البهائم البهم؟ لقد برحت بنفسك اغترابا، ونظمت في الصحبة أعاجم وأعرابا...**»[1]

ويقول هو عن نفسه:

« العرب والعجم لي صديق إذا غلت بالقرى القدور

دع عنك ما قيل من ملوك لها الدهاليز و الجدور

فارقت ربعا بـــــها و دارا وكلها أربـــــــع ودور»[2]

"فأبو حبيب" هي الشخصية التي تقوم بدور الكدية في هذه المقامة ومع ذلك لا يعد الشخصية الرئيسة الوحيدة فيها.

السرد والوقفات:

يخوض البطل/ الراوي في سرد مقامته بعد بنية الاستهلال السردي ويقص الأحداث التي وقعت له في البلاد المغربية، إلا أنه كان غالبا ما يكسر السرد ببعض الوقفات التي تعطل منه.

[1]. السرقسطي، المقامات اللزومية، ص386

[2]. نفسه.

أ- الوقفات الوصفية:

يستعمل الراوي تقنية الوصف فيتوقف السرد بفعل ذلك للحظات لا تطول، فنجده بعد أن يمل من الترحال من مكان إلى آخر، ويجد نفسه في بلاد "طنجة" يشرع في وصف أهلها وذمهم بأبشع النعوت:« **فأقمت بين أقوام كالأنعام أو كالنعام، وأناس كالسباع أو الضباع، لا أفقه مقولهم ولا يوافق معقولي معقولهم، قد فارقت القوم زيا ولفظا**»[1]

كما يقوم بتعطيل السرد أيضا عندما يشرع في وصف الأطعمة التي أكرم بها كضيف وافد بعد أن آنسوا إليه بفضل "أبو حبيب" الذي ادعى أنه بن عمه « **قدموا إلينا من الشيزى**[2] **جفانا كالجوابي**[3]**، عليها ثرائد**[4] **كالهضاب أو الروابي تنهل سماؤها بدرر اللحم، وتشرق أرجاؤها بفدر**[5] **اللحم**»[6] ووجود هذه الأطعمة المتنوعة والشهية وبعد تعب السفر الذي عناه "السائب" يستلزم وصفا لطريقة الأكل النهمة التي كانوا يلتهمونها بها« **وجعلنا نأكلها خضما وقضما، ونوسع الأجواف ردما و رضما، و الودك من على معاصمهم يسيل**»[7] والقضم والردم و الرضم كلها صفات لأساليب الأكل وقد استعملها الكاتب لبين مدى التنوع في المأكولات والأطعمة المقدمة في هذا المجلس، وبالرغم من أنها صفات إلا أنها تحمل في طياتها دينامية و حركة لا تعطل السرد تماما.كما قد تشابك الوصف مع السرد في كثير من الفقرات والجمل وهذا التلاحم بينهما لا يعطل السرد إذ قد يعمد "السرقسطي" إلى كلمة أو اثنتين فقط يبين من خلالها طبيعة الشيء الذي يتحدث عنه وماهيته.

---

[1]. السرقسطي، المصدر السابق، ص385.
[2]. شجر تعمل منه القصاع والجفان.
[3]. جمع الجوب، وهو الكانون.
[4]. جمع ثريد، وهو طعام من خبز يفت ويبل بالمرق.
[5]. قطعه.
[6]. السرقسطي، نفسه، ص387.
[7]. نفسه.

ب- الوقفات الحوارية:

كما يتعطل سرد الأحداث أيضا بفعل الوقفات الحوارية بين الشخصيتين الرئيستين في المقامة، وقد غاب الحوار بين "السائب بن تمام" وأهل المدينة بسبب الاختلاف الألسني بينهما، أما الحوار بين "السائب" و"أبو حبيب" فيقع في قلب المقامة، حين يصل "السائب" إلى ساحل المدينة وهو يهم بمغادرتها إلى الأندلس فيلتقي هناك "بأبي حبيب" الذي لا يتعرف عليه إلا بعد أن يدور الحوار بينهما ثم يعود بعد ذلك البطل إلى سرد أحداث مجلس الطعام الذي يشعر فيه مرة أخرى بغرابة عادات وتقاليد البربر في الضيافة فيستنجد في ذلك بحواره مع "أبو حبيب" ليشرح له المقصود من تلك التصرفات وأنه من واجبات إكرام الضيف وأن عليه الاستسلام وقبول ذلك« **قال لي أبو حبيب هذه تحفة القوم وقرى الضيف(...) فقلت: هل من هذه النشبة خلاص أم لهذا المحض خِلاص...»**[1].

وبعد هذه الوقفة الحوارية ينتقل البطل إلى السرد الممزوج بالوصف مرة أخرى حين خرج والقوم إلى مجلس ثان تقدم فيه الأطعمة ويركز أكثر هذه المرة على وصف المشروبات التي يقدمونها، ثم يعود إلى الحوار النهائي بين البطلين بعد خذا المجلس والبربر يغطون في نوم عميق بعد مجلس أنسهم ليظهر من خلال هذا الحوار حيلة "أبو حبيب" من استبقاء "السائب" بعد أن كاد يجتاز الساحل « **قال يا سائب، لولا أني أخشى عدمك(...) قال: خذ طريقا غير طريقي وتخلى عن معشري ورفيقي...»**[2]

جـ- الوقفات الشعرية:

لا يكتفي الكاتب بالوقفات الوصفية والحوارية فحسب بل يوظف الوقفات الشعرية إضافة لذلك، أما الوقفة الأولى تأتي مباشرة بعد أن يتعرف "السائب" على أ"بو حبيب"، إذ عجب من أن يجده في مثل هذا المكان الغريب، فيشرح له سبب ذلك، وفلسفته في الحياة من خلال قصيدة شعرية كاملة، ومن ذلك وجوده في أي مكان يستطيع من خلاله تحصيل

[1]. السرقسطي، المقامات اللزومية، ص387.
[2]. نفسه، ص388.

رزقه منه سواء بالحيلة أو بغير ذلك ولا فرق بين البدو الحضر، مادامت الحياة تنقسم إلى بين صاحب وفيّ وآخر غدور فلا ضير في التجوال في كل البقاع.

أما الوقفة الشعرية الثانية فهي وقفة ختامية ينهي بها المقامة ويوجه الحديث فيها إلى "السائب" و يحثه على الهروب من "طنجة" ليسلم من الأذى:

بالله يا سائب سر راشدا من قبل أن يقطع حبل الوريد[1]

ويشرح فيها أسباب احتياله على كسب الرزق ويمتدح نفسه على القدرة في ذلك:

أما تراني الدّهر ذا عزمة أساير النجم كأني بريد

لا أرهب الليل ولا أتقـي إلا شهابا لرجيم مريـد[2]

وهذه الوقفات على اختلافها تمنح المقامة الثراء و التنوع الشكلي، من خلال تنوع تقنيات الكتابة، إذ لا يكتفي الكاتب بالسرد فقط بل يمنح المقامة الحيوية في السرد تارة وفي التعطيل تارة أخرى، وفي المزج بين السرد والوصف وبينه وبين المقطوعات الشعرية، فيؤدي ذلك إلى التنوع في الإيقاع الزمني للمقامة.

الزمان والمكان:

يعد الزمان والمكان من أهم مكونات الخطاب السردي، إذ لابد للشخصيات و الأحداث من حيز تجري فيه، ويظهر لنا المكان جليا في مستهل المقامة الذي ينقسم إلى قسمين ضيق، وواسع، أما اتساعه فمرتبط بموضوعة السفر والتنقل من مكان إلى آخر ، يبدأ البطل بالحديث عن ذلك مما يجعل الفضاء المكاني غير محدد المعالم ونقرأ ذلك من خلال قوله:« **أجول في المشارق والمغارب**»، ولعل تيمة السفر وارتباط المقامة بالتجول هي التي جعلت المكان يتسع في بدايته ثم ينتقل بعد ذلك ليحدد المكان الضيق« **حتى**

[1]. السرقسطي، المصدر السابق، ص389.
[2]. نفسه.

قذفتني الأيام إلى بلاد طنجة»[1] وطنجة كما هو معلوم من مدن المغرب الأقصى« على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم وبلاد البربر»[2] ومع ذلك فهي تعتبر المسرح الواسع مقابل المكانيين الضيقين الذين سيذكرهما فيما بعد، وهما بالتحديد الساحل و رملة شعثاء كما وصفها.

وبعد أن يحدد الراوي هذه الأماكن الضيقة والواسعة يعمد إلى تحديد المكان المقصود« **وأشرفت منها على بلاد إفرنجة**»[3] والراوي إنما كان يعول في سفره للوصول إلى هذه البلاد« **وكنت أسمع بأرض الأندلس وحضارتها، واحتفالها، ونضارتها فأتمناها تمني المشتاق وأفديها بالكرائم و العتاق...**»[4]

وواضح من خلال بعض الألفاظ التي يستعملها البطل أنه كان يعيش حالة اللاستقرار فانعكس ذلك جليا على اللا ستقرار المكاني« حتى اشتكتني الذرى و الغوارب وملتني الطوالع و الغوارب كما نلحظ أنه كلما ازداد المكان ضيقا ازداد الراوي غربة فزاد في هجاء أهل المدينة ويظهر لنا المكان مقسما بالطريقة التالية:

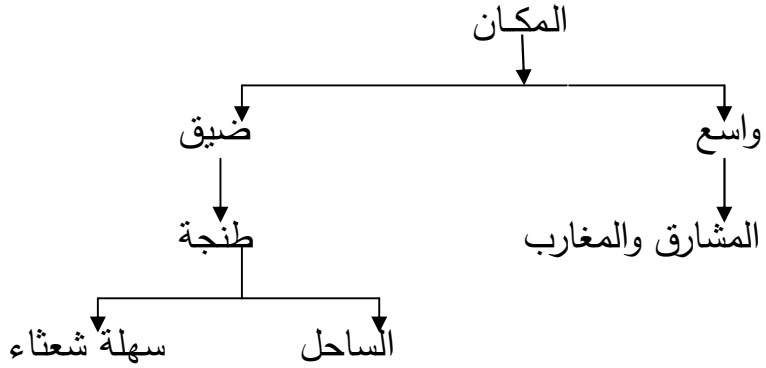

[1]. السرقسطي ،المصدر السابق، ص385.
[2]. ياقوت الحموي، المعجم، ج4، ص43.
[3]. السرقسطي، المقامات اللزومية، ص385.
[4]. نفسه.

وتتغير وظائف الأمكنة بالنسبة للشخصيتين الرئيستين في المقامة فالأندلس أو بلاد الإفرنج بالنسبة للسائب بن تمام هي المكان المنشود وهي معادل للخير، وأما طنجة فهي المكان المرفوض والمعادل للشر وهي العامل المعرقل على الوصول إلى مبتغاه فتصبح بذلك محط هجاء وذم من طرف البطل.

في حين يجمع أبو حبيب بين الوظيفتين فطنجة هي المكان المرفوض والمنشود في آن واحد على حسب ما ترومه الشخصية فهي المكان المرفوض لنفس الأسباب التي جعلته كذلك عند "السائب" من غربة واختلاف مع أهالي المدينة... بالرغم من أن هذه الشخصية استطاعت أن تحقق أهم شيء يمكن أن يحقق الألفة وهو التواصل، وهو المكان المنشود باعتباره سبيلا لتحصيل الرزق عن طريق الكدية والاحتيال.

نأتي بعد ذلك إلى الزمان الذي لم يحدد بوضوح تام في هذه المقامة ومع ذلك نستطيع أن نستشفه من بعض التعابير فعندما يقول البطل مثلا:« **وكنت أسمع بأرض الأندلس وحضارتها**»[1] فهذا زمان واسع يذكره البطل وهو يشمل فترة التطور الحضاري الأندلسي ثم يعود بعد ذلك في ثنايا المقامة لتحديد زمن آخر حين يقول:« **حتى إذا طفلت العشية، وحنت إلى كميعها الحشية**»[2] وهذا يبين أن أحداث المقامة وقعت في الفترة الصباحية إلى أواخر العشية.

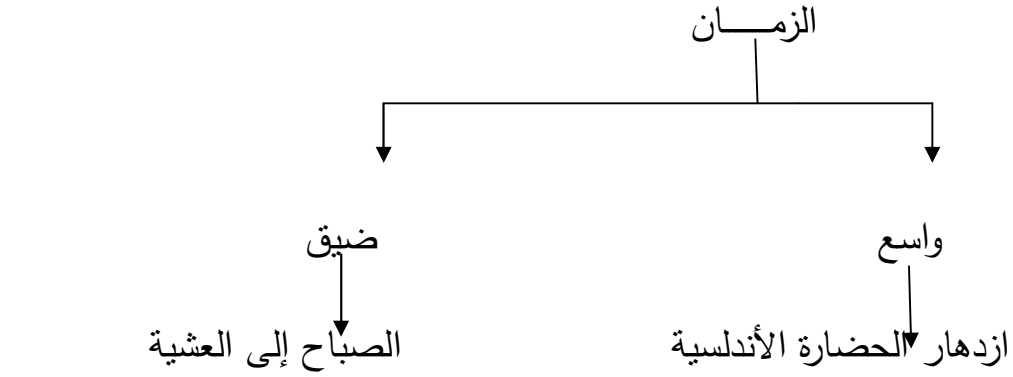

[1]. السرقسطي، المصدر السابق، ص385.
[2].السرقسطي، المصدر السابق، ص388.

2-2 سميائية العنوان والنماذج العاملية

أ- سميائية العنوان:

لم تعن الدراسات العربية القديمة بالنظر في العنوان ولا بما يحيط النص من نصوص موازية قد يكون هذا راجع في أصل الأمر إلى أن مبدعي النصوص في ذاتهم لم يهتموا بعنونة إبداعاتهم، فكانت القصيدة تذكر بشطرها الأول أو بحرف رويها، إلى أن تجددت النظرة إليه مع الدراسات الحديثة خاصة السميائية التي نبهت إلى ضرورة الالتفات إلى العنوان وما يحيط بالنص باعتبارها علامات تحيل على فهم النص وتحليله.

يعتبر العنوان من النصوص الموازية التي تعد من أهم مفاتيحه من وجهة الدراسة السميائية« إن العنونة هي أول المراحل التي يقف لديها الباحث السيميولوجي لتأملها واستنطاقها، قصد اكتشاف بنياتها وتراكيبها و منطوقاتها الدلالية ومقاصدها التداولية، إن العناوين عبارة عن علامات سيميوطيقية تقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص»[1]

فالعنوان علامة أولية للنص ترتبط ارتباطا وثيقا به إذ يعبر في كلمة أو اثنتين، أو عبارة، عن نظام سميائي آخر وهو النص، إن العنوان« غير مستقر بذاته، بل يرتبط بنص أو نظام سميائي آخر يأخذ معناه منه أو على حد تعبير "جيرار فيقنز" أن العنوان سؤال والنص أو النظام السميائي جواب لهذا السؤال ومن هنا فإن العنوان واسطة اتصال بين النظام السميائي الذي يرتبط به، وبين المتلقي لهذا النظام وعلى هذا نستنتج وجود ثنائيتين هما:

أ: ثنائية العنوان/ النظام السميائي

ب: ثنائية العنوان/ المتلقي..... »[2]

[1]. جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، م25، ع3، 1997، ص89.
[2]. بالقاسم مالكية، عتبات النص- العنوان، مجلة الأثر ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ع14،2012، ص3-4.

فهو من خلال هذا المنطلق علامة مشتركة بين النص والمتلقي وكل منهما يحيل عليه العنوان بوظائف مختلفة.

وإذ نعود إلى النص الذي بين أيدينا نجد أن صاحب المقامة يعنونه بعبارة محددة وهو المقامة البربرية، وإذا تأملنا فن المقامات عموما نلحظ أن كتابها كانوا يعنونون أغلب مقاماتهم بأسماء البلدان التي تقع فيها أحداثها، كالبغدادية، والكوفية... إلا أننا نجد "السرقسطي" يعنون هذه المقامة بـ "البربرية" رغم أن أحداثها وقعت في مدينة محددة المعالم وهي "طنجة" فم الذي حمله على هذه العنونة؟

بالتنقيب عن معاني الكلمة في المعاجم نجدها تحيل إلى معاني مثل:« كثرة الكلام والجلبة باللسان وقيل: الصياح، ورجل بربار إذا كان كذلك؛ وقد بربر إذا هذى(...) وقد بربر في كلامه بربرة إذا أكثر، والبربرة الصوت وكلام من غضب، وبربر: جيل من الناس يقال: إنهم من ولد بر ابن قيس بن عيلان»[1]

وجاء في القاموس المحيط أيضا« و البربرة: صوت المعز، وكثرة الكلام والجلبة والصياح(...)، وبربر:جيل، ج: البرابرة، وهم بالمغرب»[2] من خلال هذا التعريف المعجمي نجد العنوان يحيل على النص والمتلقي على النحو التالي:

1- ثنائية العنوان/ النظام السميائي:

يتحقق من خلال التعريف المعجمي ونص المقامة ثنائية العنوان والنظام السميائي إذ النص مبني في أساسه على الاختلاف اللغوي، ويعبر البطل في كثير من المواضع عن غربته اللغوية بينه وبين أهالي المدينة، وعن عدم استيعابه للغة القوم وبربرتهم، وعن الصياح والجلبة مع انعدام التواصل والفهم« **قنعت من الصهيل بصلصلة الجرس**»[3]

[1]. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص254.
[2]. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص349.
[3]. السرقسطي، المقامات اللزومية، ص385.

« **إلى أن جعل الشخص يبربر و يعجم، ويعرب عنهم و يترجم**»[1]،وحتى في المجالس التي فرض عليه حضورها« **فخرجنا إلى رملة وعثاء، و سهلة شعثاء، فركلوا هناك ركلا طويلا، و استعادوا حنينا أو عويلا لا يطربن ما يطربهم...**»[2]

أما الوظيفة السيميائية في هذه الثنائية فهي الإحالية إذ يحيل العنوان إلى ما يحمل النص من دلالات وسياقات تتطابق ومدلول العنوان وتوحي بما هو موجود فيه« وتتلون كل رسالة بهذه الوظيفة عندما يكون محتواها مؤيدا للأخبار الواردة فيها باعتبار أن اللغة فيها تحيلنا على أشياء وموجودات تتحدث عنها وتقوم اللغة فيها بوظيفة الرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلغة»[3] فعنوان المقامة يلتصق التصاقا وثيقا بما يرد في النص من إيحاءات.

2- ثنائية العنوان/ المتلقي:

إن المتلقي لهذه المقامة والقارئ لها لا محالة يملك صورة مسبقة ومرجعية تاريخية حول جنس البربر الذين يعيشون في المغرب وسبق وذكر في المعاجم العربية أن كلمة بربر هم جنس في المغرب من أبناء "بر بن قيس بن كنعان" كما أن الاحتكاك الذي وقع بين العرب والبربر إبان الفتح الإسلامي للمغرب العربي جعلت العربي يملك ثقافة حول بأس وقوة هذا الجنس في الدفاع عن الأراضي التي يملكها ويحكمها ولكن بعد أن فهم البربري تعاليم الدين الإسلامي رضخ لشرائعه ولان فتغيرت أيضا طريقة تعامل قواد الجيوش مع أهالي المغرب، وأصبح المغاربة جزءا لا يتجزأ من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ولكن يبقى الاحتكاك قائما عند ذوي النفوس الضعيفة الإيمان، ما جعل "السرقسطي" يصور في هذه المقامة طبيعة تلك العلاقة ولا نعلم هدفا من وراء ذلك إلا أن نقول أن "السرقسطي" كان يصور واقعا اجتماعيا يعيشه البربري في ظل غياب آليات التواصل بين شعبين يدينان

[1]. السرقسطي، المصدر السابق، ص386.
[2]. نفسه، ص388.
[3]. الطاهر بن حسن بومزبر، التواصل اللساني والشعرية مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون ، منشورات الاختلاف، ط1،1428هـ- 2007م، الجزائر، ص45.

بدين واحد ويختلفان في العادات والتقاليد، أما الوظيفة التي يحملها العنوان للمتلقي هنا كما هو واضح هي وظيفة تأثيرية

ب- النماذج العاملية:

تبني السميائية تحليلها على وظائف بروب التي استقاها من تحليله للحكايات الخرافية، ونجد أن هذه الطريقة في التحليل لم تعد تهتم بطبيعة الشخصية في حد ذاتها بل وجهت زاوية النظر إلى مختلف الأدوار التي تتقمصها واستخرج بعد دراسته لمجموعة من الحكايات الخرافية مجموعة من الوظائف تتكرر في كامل تلك الروايات كوظيفة البطل، والمساعد...،ورغم أن هذا التوجه لاقى الكثير من الانتقادات إلا أنه جاء من بعد برب من استطاع أن يطور في هذه المفاهيم أمثال غريماس الذي جاء بفكرة النماذج العاملية.

1- المقصدية:

أما مفهوم المقصدية فهو الموضوع الذي ترغب الشخصية في الوصول إليه إذ أن الشخصية مهما اختلفت وظائفها فهي تقصد وجهة معينة تسعى إلى الوصول إليها ويشرح محمد مفتاح هذا المفهوم بقوله:

« أي ذات ←——موضوع، بمعنى أن هناك توقا ونزوعا من الذات نحو الحصول على موضوع ذي قيمة، فهي بهذا المفهوم أساس كل عمل وفعل وتفاعل، وهي شرط ضروري لوجود أية عملية سميوطيقية؛ فالذات لا تحصل على موضوعها إلا بحركة ما قد تكون عسيرة أو يسيرة، وتتضمن هذه الحركة أطراف نزاع قد تكون متأبية أو منقادة، ومهما يكن الأمر فإن هناك تفاعلا يجري في فضاء – وزمان معينين، ويتحقق فيهما عبر العلامات اللغوية»[1]

[1]. محمد مفتاح، دينامية النص ، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2006،ص9-8.

وبقراءة متفحصة للمقامة نكتشف أنها تحمل ذاتين تقصدان موضوعين وتختلفان في المنطلقات والأهداف ما أدى إلى اختلافهما في علاقتهما بالموضوع.

أ- الذات الأولى منهما وهو شخصية "السائب بن تمام" وموضوعها الأندلس التي يريد الوصول إليها ويساعده في ذلك بعض العوامل مثل كونه رحالة متعود على السفر إلى المدن والبلدان، ضليع في ذلك، كما يعد وجوده في مدينة "طنجة" الساحلية القريبة من الأندلس عاملا مساعدا أيضا، وقبل كل ذلك يحمله التمني والشوق وما سمعه عن أرض الأندلس إلى الرغبة في الموضوع والنزوع إليه. أما العوامل المعرقلة على ذلك فهو شخصية "أبو حبيب" الذي أراد أن يثني عزمه في الرحيل حتى يستطيع أن يحتال من خلاله على القوم ويتضح ذلك من الخطاطة التالية:

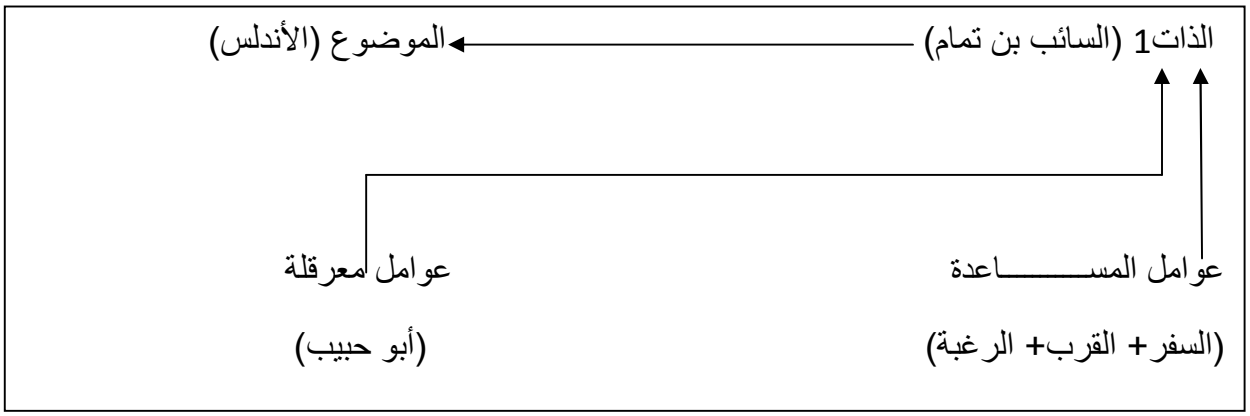

وتبقى هذه الذات من بداية المقامة إلى نهايتها منفصلة عن موضوعها

ذات1 U الموضوع.

ب- أما الذات الثانية فهو شخصية "أبو حبيب" المحتال وموضوعها الذي تنزع إليه هو سرقة أموال أهالي المدينة دون أن تلصق التهمة به، وقد عمل جاهدا على الوصول إليه، والعوامل التي تساعده في ذلك هو وجود "السائب بن تمام" حتى يستعين به في خديعته وتنطلي الحيلة على أهل المدينة ، كما يساعده في ذلك أيضا معرفته بلغة القوم وسهولة

التواصل معهم، وقد نزيد هنا إلى ذلك الذكاء والحيلة الذي يتمتع بهما، إلا أننا نجد أن العوامل المعرقلة هنا غير موجودة.

واستطاعت الذات الثانية أن تتحد مع موضوعها في آخر المقامة ويحصل "أبو حبيب" على المال الذي يرغب فيه ويتهم السائب في ذلك باعتباره الطارئ الجديد.

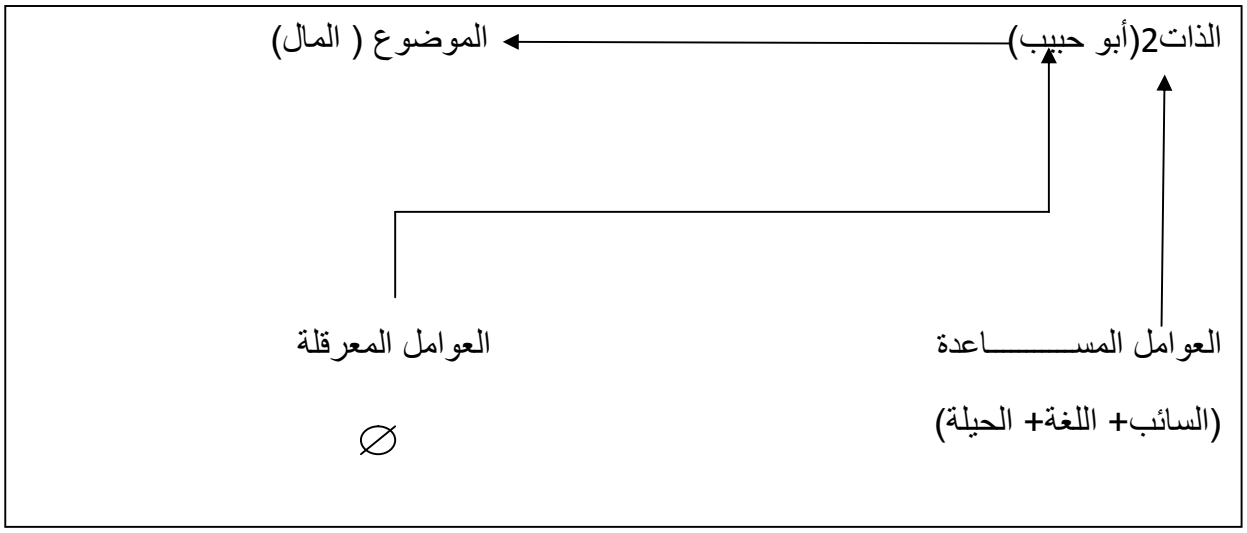

وتنفصل هذه الذات عن موضوعها ولا تصل إليه

ذات2 الموضوع

المربع السميائي:

لا يكتفي التحليل السميائي باستخراج النماذج العاملية فحسب بل يعمل على صياغة الدلالات العميقة الموجودة في النص في شكل المربع السميائي« يعرف بورايو المربع السميائي فيقول أنه: صياغة منطقية قائمة على نمذجة العلاقات الأولية للدلالة القاعدية التي تتلخص في مقولات، التناقض والتقابل، والتلازم، فهو نموذج توليدي ينظم الدلالة،

ويكشف عن آلية إنتاجها عبر ما يسمى بالتركيب الأساسي للمعنى، فهو أداة منهجية تسمح برصد انبثاق المعنى منذ حالاته الأولية، أو شبه خام»[1]

والعلاقات الدلالية التي تنتظم في هذا المربع تكون على الشكل التالي:

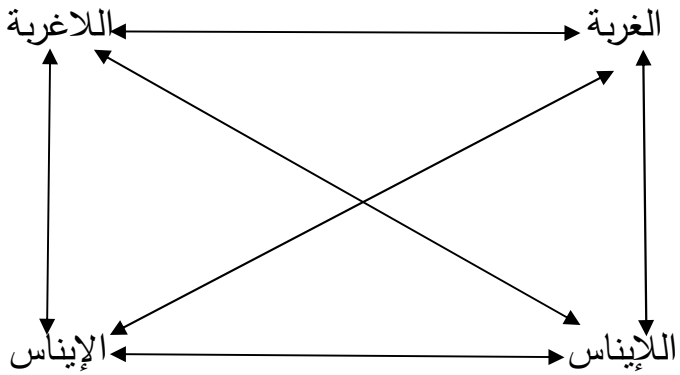

تنتج علاقة التناقض بين دلالتي الغربة والإيناس و بين اللإناس واللاغربة، التي تتجلى في مضمون المقامة وحالة الشخصيات، أما علاقة التضاد فتكون بين بين الغربة واللاغربة، وما تحت التضاد فتنشأ من ثنائيتي اللإناس والإيناس، أما علاقتي التلازم فالغربة تستلزم اللإيناس، واللاغربة تستلزم الإيناس.

2-3 التشاكل والتباين:

كما صبت الدراسات السميائية اهتمامها على دراسة التشاكل و التباين بجميع الأشكال على مستوى المضمون والشكل والتعبير« إن أول من نقل مفهوم التشاكل من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللسانيات هو كريماس وقد احتل ،منذ ذاك الوقت، هذا المفهوم لدى التيار البنيوي السيميوطيقي مركزا أساسيا»[2] وما يمكن أن يقال عن منبعه أنه غربي المنشأ آت في أصل الوضع من جذرين يونانيين أحدهما هو (ISOS) ومعناه يساوي أو

[1]. فيصل الأحمر، معجم السيميائيات ، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر،1431هـ- 2010م، ص230.
[2]. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري،استراتجية التناص ، المركز الثقافي العربي، ط4، المغرب، 2005، ص19.

مساوي، والآخر هو(TOPOS)، ومعناه المكان، فقيل(ISOTOPIES)، فكأن هذه التركيبة تعني المكان المتساوي»[1]

ولا يتوقف التشاكل عند حدود المضمون كما قصره كريماس بل يتعدى ذلك إلى التشاكل في التعبير أيضا، إن راستي عممه ليشمل التعبير والمضمون معا، أي التشاكل يصبح متنوعا تنوع الخطاب، بمعنى أن هناك تشاكلا صوتيا، و تشاكلا نبريا، و إيقاعيا، و تشاكلا معنويا...»[2]

ويظهر التشاكل في المقامة بين الشخصيتين الرئيستين أولا، إذ أن كلاهما شخصيتان تسعيان إلى موضوع تريدان الوصول إليه، وكلاهما من الغرباء عن تلك المنطقة ومن غير أهلها.

السائب = أبو حبيب(التوق إلى موضوع والغربة)

كما يظهر بين ثنائيتي الأندلس والبربر إذ نجد أن "السائب" لم يستطع الوصول لا إلى الأندلس حتى يشعر بالأمان فيها ولا إلى الإيناس إلى أهل المدينة رغم كل المحاولات .

الأندلس= البربر(بالنسبة للسائب بن تمام)

كما يتشاكل "السائب بن تمام" أيضا مع البربر أنفسهم إذ أن كلا الطرفين يشعر بالغربة اتجاه الآخر وينعدم التواصل بينهما وبين أهالي المدينة

السائب = البربر(الشعور بالغربة في مدينة طنجة)

أما إذا جئنا إلى التباين فنجد أن "السائب" يتباين مع "أبو حبيب" إذ أن هذا الأخير يجيد التواصل مع البربر ويعرف عاداتهم وتقاليدهم عكس "السائب" الذي لا ينجح في ذلك،

[1]. فيصل الأحمر، معجم السميائيات، ص235.
[2]. محمد مفتاح، نفسه، ص19-20.

كما يتباينان أيضا في كون "أبو حبيب" استطاع أن يصل إلى موضوعه، أما "السائب" فلم يصل.

السائبـ = أبو حبيب(التواصل مع أهل المدينة و الوصول إلى الموضوع)

كما يتباين "السائب" أيضا مع البربر، إذ رغم الاستوحاش الذي عرفوه في البداية مع هذا الطارئ الجديد إلا أنهم آنسوا به بعد ذلك واستقبلوه وأكرموه، إلا أن "السائب" يبقى من بداية إلى آخرها في وحشته.

السائب = البربر(الإيناس بالغريب)

وتطفح المقامة بالتشاكلات على مستوى الشكل، خاصة ونحن نعلم أن المقامات بصفة عامة تعتمد اعتمادا كبيرا على السجع وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، نجد ذلك مثلا في قوله:« **كنت أسمع بأرض الأندلس وحضارتها، واحتفالها، ونظارتها**»[1]

« **قلت: خطوة باع، وفرقة سباع، وخفقة شراع، وصحبة قراع**»[2]

كما يتكئ كاتب المقامة كثيرا على أسلوب الترصيع، وهو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها، وذلك مثل قوله :« **مازلت أجول في المشارق والمغارب ،وأغرى بالمساري والمسارب، حتى اشتكتني الذرى و الغوارب، وملتني الطوالع والغوارب**»[3]

إن هذه التشاكلات الشكلية في الأصوات والعبارات منحت المقامة إيقاعا صوتيا متناسقا تجعل القارئ يسترسل في قراءتها دون أ ن يفقد المضمون جمالياته أيضا.

[1]. السرقسطي، المقامات اللزومية، ص385.
[2]. نفسه، ص386.
[3]. المصدر السابق، ص386.

وفي خلاصة هذه الدراسة نستطيع أن نقول، أن هجاء المدن كموضوع كان مطروقا من طرف الشعراء المغاربة، وإن لم تظهر في الأدب المغربي والأندلسي ما يسمى بالهجاء القبلي، بسبب انمحاء القبيلة وتكون ما يسمى بالمدن فصار الهجاء موجها إلى الشعوب التي تسكنها بغض النظر عن انتمائهم القبلي، وإن استثنيت بعض النماذج القليلة التي تستعين بهذا الانتماء لتعمق من أثر هجائها لأهالي تلك المدن، كما أن الملاحظ أيضا أنه استحدثت موضوعات جديدة ارتبطت بمفهوم المدينة والتطور الحضاري، كهجاء انعدام النظافة على التمثيل، واستعان الهجاؤون بطرف ذكر الحشرات وهذا منه كثير فصار التصوير الكاريكاتوري موجودا بقوة في هذا المجال، ولم تغب في صور الهجاء المديني بعض الفحش والإقذاع وارتبط خاصة بالشعراء المعروفين بذلك في سائر أشعارهم الهجائية.

أما من الجانب الفني فقد اعتمد الشعراء على الصور البيانية البسيطة والمباشرة التي تستمد من واقع الحياة المعاش، دون مغالاة في ذلك لتكون الصور أقرب إلى المفهوم العام، واعتمدت الألفاظ المناسبة لغرض الهجاء كما رأينا سابقا كما، استعملت بعض الألفاظ والتراكيب الجارحة أيضا.

على أن هذا الهجاء في عمومه كان عبارة عن مقطوعات، وقلَّ أن نجد من أطال في هذا النوع من الأهاجي فنستنتج من ذلك أنه حالة عارضة كانت تمر بالشاعر في أثناء ذلك.

وارتكز اهتمام الشعراء بالإيقاع الخارجي منه والداخلي، فحرصوا على تخير الأوزان للهجاء التي تكون مناسبة لهذا الغرض، تحيط بمعانيه ولا تطيل كالبسيط وأنواعه والسريع. أما الداخلي فقد حرص البعض على تأثير بعض الأصوات واهتموا بهذا الجانب أيضا كتكرار بعض الكلمات، وتصحيف أسماء بعض المدن...

هذا ما يتعلق بالجانب الشعري في فن هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي، أما ما يتعلق بالجانب النثري فقد ركزنا على دراسة المقامة البربرية فلوحظ ما يلي:

أهم شيء ميز مقامة السرقسطي البربرية هو كون أحداثها تجري في مدينة "طنجة" المغربية، فهي مغربية المنبع و المسرح على غير المقامات المشرقية التي كانت تقصر مقاماتها على البلدان العربية المشرقية، وإن نوعت فإنها تتجه إلى البلدان الشرقية غير العربية.

كما أدى الجهل بلغة أهل البلاد التي زارها البطل إلى الغربة اللغوية، فلم يستطع التواصل مع أهلها ولم يأنس بالمقام معهم بسبب ذلك، فأخذ يهجو أهل المدينة ويذمهم بألفاظ تدل على ذلك، عكس صاحبه الذي أجاد اللغة فاستطاع التأقلم في المكان والوصول إلى مبتغاه رغم سوء النية.

ويتضح جليا تأثر السرقسطي بالمقامات المشرقية، خاصة الحريري كما ذكرنا سابقا وإن حاول في بعض الأحيان أن ينوع من حيث أبطال المقامة والراوي وعناوين المقامات.

والمقامة من جانب آخر كانت ثرية فنيا ولغويا وإيقاعا، أما لغة فنلمس ذلك من خلال المترادفات الكثيرة فيها، وأما إيقاعا فقد استطاع التنويع في السجع والموازنات في العبارات أن تحدث نغما موسيقيا ثريا، فضلا عن وجود الإيقاع الشعري فيها من جانب آخر.

وتنوع إيقاع السرد بفضل الوقفات المختلفة من وصفية إلى حوارية، إلى شعرية، كسر السرد الرتيب وأغنى المقامة بالجماليات الفنية.

ولا نغادر الخلاصة دون أن نقول أن نص المقامة حمل قيما اجتماعية وثقافية، إذ زودنا ببعض اللمحات في عادات وتقاليد المغرب العربي، فعادة إكرام الضيف واضحة جدا وحتى طريقة ذلك، بل إن المنطقة تصف لنا الأطعمة و المشروبات التي تتميز بها المنطقة مثل الثريد و الإنزيز... فصارت المقامة بذلك تصويرا جمالي من جهة وقيمة تاريخية وثقافية من جانب آخر.

الخاتمـــــــة

نلم في خلاصة هذا البحث بالنتائج النهائية التي يمكن أن نقول بأننا استطعنا أن نصل إليها بعد طرح الإشكالية في بدايته ولا نغفل في إطار ذلك عن كل ما وصلنا إليه من جزئيات بداية من الفصل الأول إلى نهاية .

أما النتيجة التي خرجنا بها في الفصل الأول فهي ارتباط فن الهجاء بالأدب عموما ولا يقتصر بالشعر فقط كما لا يعني هنا شعر هجاء المدن فقط بل حتى باقي أنواع الهجاء.

كما رأينا أيضا من خلال إدراج نماذج في فن هجاء المدن في الأدب العربي القديم بعض النقاط منها:

1- نشوء هذا الفن مع ظهور التمدن العربي والإسلامي، أي في القرن الثاني هجري كما يثبت كثير من النقاد.

2- شعر هجاء المدن بشقيه الشعري والنثري لم يكن يقتصر على البلدان العربية فقط بل شمل حتى البلدان غير العربية من التي فتحها المسلمون أو من التي زارها المبدوعون في ترحالهم.

3- الشاعر الذي يعمد إلى هجاء المدينة قد يكون عابر سبيل وصاحب حاجة لم تقض، كما قد يكون من أهل تلك المدينة يحسب أنه لم يعرف له مقامه، أو لم ينل مراده فيمتعض لذلك ويصب جام غضبه على أهلها.

4- وصف الأديب العربي في هذا الفن كل النواحي الخاصة بالمدينة، من جانب طبيعي كشدة الحر و شدة البرد ووعورة الطبيعة...كما تحدث عن أخلاق أهالي المدن وطباعهم ومعاملاتهم...

وعن حضور هذا الفن في الأدب المغربي والأندلسي خلصنا إلى النتائج التالية:

1- هذا الفن لم يكن غائبا في الأدب المغربي و الأندلسي وإن كانت النماذج الشعرية قليلة نوعا ما.

2- ارتكزت المادة المجموعة في إطار زمني معين يبتدأ بالقرن الثاني هجري إلى القرن التاسع منه بحسب النماذج التي وجدناها.

3- اشتمل الشعر والنثر على هجاء المدن على السواء فكما هجا الشاعر المدينة ، صور الأديب سلبياتها بأسلوبه.

4- أهم الأشكال النثرية التي اندرج فيها هذا الفن الرحلة؛ باعتبارها فن يصور فيه الرحالة المدن التي يقصدها ويصف أحوالها وأهلها وحتى سبل الوصول إليها، وكذا فن المقامات العربية لأنها تقف على النقد الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات.

5- في جانب الموضوعات فقد ارتكز هجاء المدن على عناصر التي تحويها المدينة فهجاء العنصر الطبيعي كان موجودا بقوة، لم يذكر جانب الجوفقط بل تعرضوا حتى للجانب المسالك والجبال ووعورتها وحتى للحشرات المقلقة والمؤذية.

6- كما هجي الجانب الحضاري أيضا كانعدام الأمن و هجاء المباني والدور وكذا التعرض إلى انعدام النظافة كمواضيع جديدة طرقت في هذا الفن.

7- كان أغلب الكتاب الذين يهجون المدن رحالة أو عابري سبيل، أو طلاب مقصد وحاجة، لذلك نجد أن أغلب الأدباء لا ينتمون إلى المدن التي هجوها وإن وجدت بعض النماذج في ذلك إلا أنها قليلة.

8- كان الإلمام بكثير من الجوانب في هذا الموضوع في النثر أكثر منه في الشعر باعتبار النثر أكثر تصويرا للمدن وتدقيقا في ذلك في حين قد يقتصر الشعر على حادثة معينة يهجى من خلاله سلبية أو اثنتين فقط.

9- أغلب المادة الشعرية كانت عبارة عن مقطوعات لا تتعدى إلى قصائد كاملة إلا نادرا.

أما عن الدراسة الفنية و السميائية فألممنا بالنتائج التالية:

1- اعتماد الصور البيانية البسيطة لتوضيح بعض المعاني دون الإيغال فيها

2- اعتماد الألفاظ المناسبة لغرض الهجاء التي كانت تخرج في بعض الأحيان إلى السب والفحش

3- اعتماد بعض الأوزان الشعرية المناسبة لغرض الهجاء مثل السريع والبسيط.

4- كما اعتمد بعض من البديع الذي يساهم في الإيقاع الداخلي للشعر لتسهيل رسوخ الأبيات والمقطوعات الشعرية.

5- أما عن المقامة فلاحظنا أنها كانت ثرية فنيا إذ ناسبت الدراسة السميائية لتحليلها واستنباط النماذج العاملية وربطها بوظائف اللغة ومدى علاقة العنوان بالنص وإحالاته.

6- كما لاحظنا أيضا مدى تأثير التشاكل والتباين في ثراء المقامة شكلا ومضمونا.

نستطيع أن نقول في الأخير أن فن هجاء المدن كان حاضرا في نصوص الأدب المغربي والأندلسي، وقد لا نقول بأن حضوره كان قويا ولكنه على العموم استطاع أن يصور واقعا فنيا أدبيا، اجتماعيا، وثقافيا لبيئة المغرب والأندلس.

الملاحـــــــــق

نصوص المدن الأندلسية

جبل الفتح: "إلا أنه والله يقيه مما يتقيه بعيد الأقطار هماز بالقطار، كثير الرياح والأمطار، مكشف بالرمل المخلف، والجوار المتلف قليل المرافق، معدوم المشاكل والمرافق، هزل الكراع لعدم الإزدراع، حاسر الذراع للقراع، مرتزق من ظل الشراع، كورة، دبر ومعتكف أزل وصبر، وساكنه حي في قبر".

أسطبونة: " إلا أن سواحلها فل الغارة البحرية، ومهبط السرية غير السرية، الخليقة بالحذر الحرية، مسرح السايمة الأميرية وخدامها كما علمت أولئك هم الشر البرية".

مالقة:" وعلى ذلك فطينها يشقى به فطينها، وأزبالها تحي به سبالها، وسروبها يستمد منها مشروبها، فسحبها متغيرة وكوكب أذمانها متحيرة، وأقطارها جد شاسعة، وأزقتها حرجة غير واسعة وآبارها تفسدها أدبارها، وطعامها لا يقبل الاختزان، ولا يحفظ الوزان، وفقيرها لا يفارق الأحزان، وجوعها ينفي به هجوعها، تحث على الأمواج أقواتها، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها وأرحيتها تطرقها النوائب، وتصيب أهدافها السهام الصوائب وتعدلها الجنايب، وتستخدم فيها الصّبا والجنايب، وديارها الآهلة، قد صم بالنزائل صداها، وأصبحت بلاقع بما كسبت يداها، وعين أيانها أثر، ورسم مجادتها قد دثر، والدهر لا يقول لمن عثر، ولا ينظم شملاً إذا انتثر، وكيف لا يتعلق الذام ببلد يكثر به الجذام، علة بلواه آهله، والنفوس بمعرة عدواه جاهلة".

قمارش: " إلا أنه عدم سهلة وعظم جهله، فلا يصلح فيه إلا أهله".

المنكب: " إلا أن اسمها مظنه طيرة تشتنق، والتنكيب عنها يوتنق، وطريقها يمنع شر سلوكها، من تودد ملوكها وهواؤها فاسد، ووبأها مستأسد، وجارها حاسد، فإذا التهبت السماء، وتغيرت بالسمائم المسميات والأسماء، فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون، وإلى جبالها يعرجون، والودك إليها مجلوب، والقمح بين أهلها مقلوب، والصبر إن لم يبعثه البحر مغلوب، والحرّ ما يعراها والحرّ بدم الغريب مطلوب" ص288.

شلوبانية: " إلا أن أرضها مستخلص السلطان بين الأوطان، ورعيتها عديمة الأعيان على الأحيان، وتختص شلوبانية بمزية البنيان، ولكنها غاب الحيات الحميات، غير أمينة على الافتيان ولا وسيمة الفتيان و الفتيات".

برجة:" إلا أن متبوأها بسيط مطروق، وقاعدتها فروق، ووتدها مطروق ومعقلها خرب، كأنه أحدب جرب، إن لم ينقل إليه الماء برح به الظمأ، والله در صاحبنا إذ يقول:

يا بسيطا بمعاني برجة* أصبح الحسن بها مشتهراً**

لا تحرك بفخار مقــولا*فلقد ألقمت منها حجـــــرا**

والبرّ بها نذر الوجود واللحم تلوه، وهما طيبتا الوجود، والحرف بها ذاوية العود، والمسلك إليها بعيد الصعود".

دلاية: " إلا أنها كسرايا العدو البحري، مجر العوالي، ومحل الفتكات على التوالي، فطريقها صور ومشاهد، والعازف بها زاهد".

المرية: "إلا أن مغارمها ثقيلة، وصفحة جوها في المحول صقيلة،في وسماؤها بخيلة، وبروقها لا تصدق منها مخيلة دبلالة النطية، منزورة الطية، وسعرها ليس من الأسعار الوطية، ومعشوق البرّ بها قليل الوصال وحمل البحر صعب الفصال، وهي متوقعة إلاّ أن يقي الله طلوع النّصال دعاة النصال".

طَيَرنش من شرقها: " إلا أنها محيلة الغيوث عادية الليوث متحزبة بالأحزاب، شرهة الأعزاب، ولو شكر الغيث شعيرهاا، أحصب البلاد غيرها".

بيرة: "إلا أنها قليلة المطر، مقيمة على خطر، متلومة الأعراض والأسوار، مهطعة لداعي البوار، خليقة الحسن المغلوب معللة بالماء المحلوب، آخذة بأكظام القلوب، خاملة الدور، قليلة الوجوه والصدور، كثيرة المشاجرة والشرور، بُرها أنذر من برِّها في المعتمر والبور، وزهد أهلها في الصلاة شائع في الجمهور، وسوء ملكة الأسرى بها من الذائع والمشهور.

ما قام خيرك يا زمان بشرِّه أولى لنا ما قلَّ منك وما كفا".

محاقر: "إلا أنه لا تلقى به للماء بلالة، ولا يستشف للجود علالة".

قنورية: " أقل شراباً وأكلاً، وأحما أهلاً، وآسد جملاً، وأعدم علاً ونهلاً، وأضلعهم بالظمأ حرار لا تلفي بها نبعة ماء، ولا تعدم مشقة ظمأ ولا تتوج أفقها إلا في الندرة قرعة سما".

برشانه: "إلا أن جفنها ليس ندى، سور يقيه مما يتقيه، ودعدها يتكلم على فيه، وحليها يشقى بالسفيه، ومحياها تسكن حية الجور فيه".

أورية: " إلا أنه بادي الوحشة والانقطاع، والإجابة لداعي المخالفة والإهطاع، وحيش الجناب عرى من شجرات النخل والأعناب، حقيقة لمعرة العدو بالاجتناب".

بلش: " إلا أنها بلدة منقطعة باينة، وبأحواز العدو كائنة، ولحدود لورقة فتحها الله مشاهدة معاينة، وبرها الزهيد القليل يتحف به العليل، وسبيل لأن إليها غير سبيل، ومرعاها لسوء الجوار وبيل".

بسطة: " إلا أن أسوارها تفضح البنا، فإن صحبه الإعتنا، فأسواره تسجد عند الإقامة وخندقها لإكسارها تلقامة، فهي لذلك غير دار المقامة، ورياحها عاصفة، ورعودها قاصفة، وحاميتها تنظر إلى الهياج من خلف سياج، والعدو فيها شديد الفتكات معمل الحركات وساكنيها دائم الشكات، وحدها فليل، وأعيانها قليل، وعزيزها المتوقع المكروه ذليل".

أشكر: " إلا أن معقلها لا يمنع ومكانها يحوم عليه الحادث الأشنع ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع".

أندرش: " إلا أنها ضيقة الأحواز والجهات، كثيرة المعابر والفوهات، عديمة الفرج والمتنزهات، كثيرة المغارم، مستباحة المحارم، أغرابها أولو استطالة وأبناء مترفيها كثير البطالة، فلا يعدم ذو الضرع والزرع عدوانا، ولا يفقد عين الشر نزقانا، وطريقها غير سوى، وشأنها ضعيف يشكو من قوي".

قنالش: " إلا أنه وطن عدم إدامه، وبليت ظهر اهتدامه، وفقدت به حيل التعيش وأسبابه، ومحل لا هيم فيه إلا أربابه.

وادي آش:" إلا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش، وتافهها يتعثر عليه الانتعاش، وشيخها يسيطر على عصبه الارتعاش، فهي ذات برد، وعكس وطرد، ما شئت من لحى راعد، ومقرور على الخمر قاعد، ونفس صاعد وفتنة يعد بها واعد، وشرور تسل الحناجر، وفاخر يسيطو بفاجر، وكلف يهاجر، واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر، وزمهرير تجمد له المياه، في شهر ناجر".

فنيانة:" إلا أن بردها كثير، ووقودها نثير، وشرارها لهم في الحياة تأثير".

غرناطة: "لكنها والله بردها يطفئ حرّ الحياة، ويمنع الشفاه عن رد التحيات، وأسعارها يشمر معيارها بالترهات، وعدوها يعاطي كؤوس الحرب بهاك وهات، إلى السكك التي بان خمولها، ولم يقبل الموضوع محمولها، والكرب الذي يجده الإنسان فيها صادف إضافة أو ترفيها، والمكوس التي تطرد البركة وتلقيها إلى سوء الجوار، وجفاء الزوار، ونزالة الديار، وغلاء الخشب والجيار وكساد المعايش عند الاصطرار وامعان المقابر وهي دار القرار وقصر الأعمار، واستحلال الغيبة والأسحار واحتقار أولى الفضل والوقار، والتنافس في العقار والشح في الدرهم والدينار باليم والنار".

الحمة: " لكن مزارعها لا ترويها الجداول، ولا ينجدها إلا الجود المزاول، فإن أخصب العام، أعي الطعام، وإن أخلف الأنعام، هلكت الناس والأنعام، والفواكه يطرف بها الجلب، وتزر عليها العلب، وعصيرها لا يليق لا بالأكل ولا يصلح للحلب وبردها شديد وإن لم يقض به المنقلب".

صالحة:" مهب نسف، ودار خسف، وأهلها بهم ليس لأحد منهم فهم".

لوشة:" إلا أن داخلها حرج الأزقة، وأحوال أهلها مائلة إلى الرقة، وأزقتها قذرة، وأسباب التصرف فيها متعذرة، ومنازلها لترامل الجند نازلة، وعيون العدو لثغرها الشنيب مغازلة".

أرجونه:" شر دار، وطلل لم يبق منه غير جدار، ومقام يرجع البصر عنه إليه وهو حاسر، وعورته ساكنه لعدم الما مستأسر، وقومها ذو بطر وأشر، وشيوخها تيوس في

مسالح بشر، طغام، من يقوت منهم أو يعول التيوس والوعول، وحرثها مقل، وخلقها حسد وغل".

أنتقيرة: " إلا أنها جرداء الخارج، فل مارد ومارج، وشدة فرجها بارج، لا تصطبنها المسلحة للإتساع، الذرع الوساع، قليلة الفواكه، عديمة الملاطف والفاكة، أهلها أولو سرور وغرور، وسلاح مشهور، وقاهر ومقهور لا تقبل غريباً، ولا تعدم من العدو تثريباً" ص.

ذكوان: " إلا أنها ضالة ساقطة، وحية ترتقب لاقطة، لا تدفع عن قرطها وسوارها بأسوارها، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها، قضت بقلة أعيانها، حداثة أعيانها".

قرطمة: "إلا أن الماء بمعقلها مخزون، وعتاد موزون، وأهلها في الشدائد لا يجزون، أيديهم بالبخل مغلولة، وسيوف تشاجرهم مسلولة".

رندة: "إلا أن العدو طوى ذيل برودها وغصب بنياتها وكيف السبيل إلى ردها وأصناف خارجها، وخفض معارجها وأعلى طائرها ودارجها".

نصوص المدن المغربية

باديس:"إلا أنها موحشة الخارج وعرة المعارج، مجاورة من غمارة المارد المارج، فهم ذو دبيب في مدارج تلك الغرابيب، وكيدهم ببركة الشيخ في تثبيت" .

سبتة:"إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث، فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك من حسنة تعد من الذنوب فأحوال أهلها رقيقة، وتكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمحصون البلالة، مصّ المحاجم بالشر الهاجم ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم في بلدهم فتنة الواجم بالبشر المناجم وراعي الحدث، بالمطر الساجم، فلا يفضلون على ميدنتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة".

طنجة:" لكن رملها يحشو العين بالذرور، ويدخل الدور، ويفسد القدور، ورياحها لا تسكن إلا في الندور، وظلمة جوها متسببة عما وراها من مغرب الشموس والبدور، وعين فرقان أعذب عيونها مشهور بتواليد الهرج، قرآن عند الناس غير ذي عوج ويذكر أن سليمان اختصها بسخر مودة الجن، فيعثر على أواني ملئت ريحاُ تثير تبريحا ويسندون لذلك إفكاً صحيحاً" .

قصر كتامة:"إلا أنه قدر تهدم، ودار الندوة لام ملدم، ومثير الهائج الموّار، وثائر الدّم، جثم الهوا الخبيث في بطيحته وربض، وانبسط وما انقبض، وجبر ليله عسكر البعوض الهاجم، دربة بمص المحاجم، وأما وحله فلا يعبر ولا يسبر، وإن أسهبت العبارة والأمر أكبر".

أصيلا:"إلا أن حصنها من المنعة برى، وساكنها بربري، وجارها من غمارة جرى" .

سلا:" إلا أن ماءها لا يروي به وارد، لا كريم ولا بارد، وإلفها والخزين بها فاسد، وبعوضها مستأسد راضع غير مفطوم خالط للعذار غير محطوم واسع الحد والخرطوم تصغي لرنته الآذان ويفتك بوخز اللسان، كالقوس تصمي الرّمايا وهي مرنان وديارها في

الماء دار عثمان، وطواحنها عالية الأثمان، وكثبانها تلوث بيض الثياب طيّ العياب، وعاب واديها إلى مأرب أكيد في تنكيد، إلى غلبة الإمساك، وخوض النساك، وكثرة أرباب الخطط، والإغيا في الشطط، تدور عن جناتها للأسد جنان، فلا يلتذّ بقطف العنقود منها بنان، وفي أهلها خفة، وميزانها لا تعتدل منها كفة".

أنقا:" لكن ماؤها وهواؤها عديما الصحة، والعرب عليها في الفتن ملحة، والأمراض عليها تعيث وتعبث، والخزين لا يلبث" .

أزمّور:"لكن أهله إنما حرثهم وحصادهم اقتصادهم، فلا يعرفون ارضاخاً ولا ورداً نضاحاً يترامون على حبة الخردل بالجندل ويتضاربون بالسيوف على الأثمان والزيوف، بربري لسانهم، كثير حسانهم، قليل إحسانهم، يكثر بينهم بالعرض الإفتخار ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار" .

تيط:" إلا أن خارجها يروق عين المقيم والمسافر، ولا يشوق بحسن مسافر، ومؤمنة تشقى بصداع كافر، وحماه عدوّ كلِّ خف وحافر، فلولا ساكنها، لم يلبس يوم فخر، ولم ينبت أيّ صخر" .

رباط آسفى:" لكن ماؤها قليل، و غزيره لغاديه من يواليه من الأعراب ذليل" .

مراكش:"إلا أن هواها محكم في الجباه والجنوب يحمي عليها بكر الجنوب، و حمّياتها كلفة بالجسوم، طالبة ديونها بالرسوم، و عاقربها كثيرة الدبيب، منغصة مضاجع الحبيب، وحزابها موحش هائل، وبعد الأخطار عن كثير من الأوطار بها مائل، وعدوها ينتهب في الفتق أقرانها وجرذان المقابر، تأكل أمواتها وكانت أولى المنازل بالأعياد، لو أنها اليوم معدودة في الأحياء.

أغمات:"إلا أن أهلها يوصفون بنوك وذهول، بين شبان وكهول، وخرابها يهول، وعدوها تضيق لكثرته السهول، فأموالها لعدم المنعة في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان" .

مكناسة:"إلا أن طينها ضحضاح، لذي الطرف فيه افتضاح، وأزقتها لا يفارقها القذر، وأسواقها يكثر بها الهذر، وعقاربها لا تبقى ولا تذر ومقبرتها لا يحتج عن إهمالها ولا يعتذر" .

الملك:"إلا أنّ حرّ هذه المدينة يذيب، وساكنها ذيب، ومسالكها وعرة، وظهايرها مستعرة وطينها هايل، ورخامها حرب وابل، إن نشد الجفا ناشد، فهي ضالته المنشودة، أوحشد إضافة حاشد، فهي كتيبته المحشودة، إلى بعد الأقطار وعياث الميازب أوقات الأمطار، والاشتراك في المساكن والديار عن الموافقة والاختيار وتجهم الوجوه للغريب ذي الطرف المريب، وغفلة الأملس عن الجريب، ودبيب العقارب إرسالاً كالقطار الغارب، وأهلها يرون لأنفسهم مزية الفضل، ويدينون في مكافأة الصنائع البالغة بالعضل، يلقى الرجل أبا منواه، فلا يدعوه لبيته، ولا يسمح له ببقله ولا زيته، فلا يطرق الطيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم ومقبرتهم غير نابهة، وأجداثها غير متشابهة، منشبة حيوان ومشبعة جردان غير وان" .

سلوين:" إلا أن الشمس لا تطرقه سمال، ولا ترمقه إلا وقت زوال، قد باء بالحظ الموكوس، وانكمش تحت ربط الظلّ المنكوس، فجوه عديم الطلاوة، وعنبه للبرد قليل الحلاوة".

سجلماسة:"لكنها معركة غبار، وقتيل عقربها جبار، ولباسها خامل والجفا بها شامل، والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب لبناء جدرانها بالطوب، والقرع برؤس أهلها عابث، والعمش لجفونهم لابث والحصا يصيبهم، ويتوفر منه نصيبهم".

تازي :"إلا أن ريحه عاصف، وبرده لا يصف واصف، وأهله في وبال من معرّة أهل الجبال، وليوثه مفترسة، وأخلاق أهله شرسة" ص.

غساسة:"فريسة وأكيلة، وحشف وشر كيلة"

<u>أغمات</u>:" وأهل هذه المدينة ينسب إليهم نوك وغفلة علتها، إن صدقت الأخبار سلامة، وسذاجة فتعمر بملحمهم الأسمار، وتتحمل بنوادر حكاياتهم الأخبار".

<u>القيروان:</u>

" ثم وصلنا إلى مدينة القيروان فدخلتها مجداً في البحث غير وان، فلم أر إلا رسوماً محتها يد الزمان، وآثار يقال عنها كان وكان، والأحياء من أهلها جفاة الطبع، مالهم في رقة الحضارة باع ولا في معنى من معاني الإنسانية انطباع، خفت نفس العلم بينهم فلم يبق به ومق، وكسدت سوق المعارف بينهم فيا سخنة عين من رمق والمدينة نفسها ليس لها بر ولا بحر، ولا سحر ولا نحر وضعت في سبخة قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى لا تنبت أصلاً ولا تغل فرعاً وما كان حالها في القديم إلا آية من آيات هذا الدين القويم".

فـــــاس:

"ثم وصلنا مدينة فاس ذات المخبر الخبيث والمحيا العابس هواء وخيم ولؤم طبع رخيم، وتضييع المصليات والمساجد وقلة اعتناء بكل راكع وساجد، مغانيهم إلى النجوم عالية، ومعانيهم أسفل التخوم هاوية إلى عفونات تخبو لقربها المصابيح وتنحو بالخول كل وجه صبيح تفسد الألوان والأذهان وتضرم للمزاج المعتدل نار الحرب العوان تنصب على مجانيق الطوى فتقذفه بجلاميذ الخوى وترميه بسهام الروائح المنكرة عن قسي الأهوية المغيرة بأكف الأبخرة المكدرة، فما تلبث أن تحط علاه وتهيج للأقسام حماه، تنصب حواليه أنهار تشتعل بها في حشى الضمآن نار، ودارت به غاية من نخيل، قد طلسمت ثمرتها بكف كل بخيل، فلو أتاها جبلة بن الأيهم أو حل حماها ابراهيم بن أدهم لم تنل إلا برقية الدينار والدرهم .

زوارة وزواغة:

ومنها إلى قريتي زواره وزواغة ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزواغة معتقدات شنيعة وأعمال كسراب بقية ومذاهب سور رديئة وضمائر شر عمر منهم كل طوية، إن استنام إليهم حلج لم يوقضه إلا برد ماء التقديس ودوي أصوات النواقيس،أو استأمن إليهم حاج لم يرعه إلا تلفيق المعاذير عن إساءة رعي الخنازير لأنهم يبيعونها من النصارى بأبخس الثمن ويعتقدون كل ذلك حقا تنتفي عنه الظن.

طرابلس:

ثم وصلنا مدينة طرابلس للجهل مأتم وما للعلم بها غرس أقفرت ظاهرا وباطنا وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقصائدها لمعان البرق الخلب وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب اكتنفها البحر والقفر واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا، بل هي أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس على ناشئ منهم فضل لذي شيبة ولا لذي الفضل بينهم هيبة. ترى أجساما حاضرة والعقول في عقل غيابات الغيبة وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ من العيوب الغيبة إلى بخل لو مازج ماء البحر جمد وخالط الهواء سكن في أذار و ركد وخلق يضيق به متسع الفضاء ونزق يحق له في ذمهم كشف الغطاء وأذهان أربت في الضيق على الخاتم سواء لديها من حارب ومن سالم كأنهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم فسبحان من خلقهم.

مصراطة:

ثم مررنا بلاد مصراطة وهو بلد لم يحوي إلا جفاته وشأنه أحقر من أن يعمل فيه الوصف مقوله أو أداته.

سرت:

لاحت لنا في البيداء قصور سرت ولسان حالها يقول لنزيلها أقويت وأقفرت فإن عدلت عدلت وإن كنت ما جرت فقد جرت

لي اسم ولكن لا مسمـــــى وراءه فلا تغترر إن كنت ذا فطنة باســـم

فكم طار في الآفاق صيت مشهر لمن ماله في صال الفضل من قسم.

جربة:

وهي جزيرة صغيرة منقطعة في البحر فيها زيتون ورمان وتفاحها مشهور يجلب منها إلى البلاد وأهلها أصحاب مذاهب رديئة وأهواء مضلة مثل زواره وزواغة دمرهم الله جميعا.

وهـــــــران:

"ولكنها لما طرقها من نوائب الدهر مطرقة، وجيوش الخطوب الملمة بها محدقة، قارعتها حتى قرعت ساحتها ونافحتها بسموم الآفات حتى ذهبت صباحتها، فألقت بيدها مستلمة وعادت بعد ضوءها مظلمة لا وشل بها يشفي غله، ولا طباً يداوي علة، انتثلها الزمان فلم يبق بها تقياً وأبدلها الحدثان من كل بشارة نعياً، ولا تلقى بها معمل براعة ولا ترى فيها حلف براعة بل خرس بها التلاوة وزيد بها حمار الجهل على الفودين علاوة لم يطعموا العلم ولا ذاقوا له حلاوة بل تبرؤوا منه فكلهم فالج بن خلاوة".

تلمســـــــان:

"وصلنا مدينة تلمسان فوجدناها بلد حلت به زمانة الزمان وأخلت به حوادث الحدثان فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للظمئان بلالة وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها فأعطاهم ديناراً واحداً وأغرب هذا ما شاهدته من منصور صاحب مليكش أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم، واحتفل في السلام عليهم ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار هؤلاء ضيفان الله، ومن يحمل منهم إلى بيته واحداً وجعل يكرر ذلك كما يصنع المدرون أهل المدر فلما لم يجبه أحد منهم ولى عنهم وراءه جمع كثيف من الفرسان وهو سلطان تلك النواحي"

"وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن ومنازل بغير نازل ومعاهد أقفرت من متعاهد ، تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع

وترثي لها فتندب الحمام الوقع أن نزل بها مستضيف قرته بؤسا أو حل فيها ضعيف كسته من رداء الردى لبوسا، وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاصت أنهاره فازدحم على التمادي، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله و منهل جف وشله وقد حضرت بها مدرسا مذكورا عندهم يقرأ عليه باب التوكيد من الجمل، فسمعته يقول كلا للمذكرين وكلتا للمذكرتين، وأعربوا قول ابن دريد:(هم الذين جرعوا من ما حلوا) بأن هم مبتدأ والذين مبتدأ ثان وجرعوا خبره والجملة في موضع خبر، وهذا قليل من كثير.وصبابة من غدير. وأما الفقيه عندهم فطويل الاغتراب يئوب إذا ما العارض المغتر آب، وقد تحاكم إلى قاضيها إذ كنت بها متبائعان في ذهب رديء فحكم بما قيل في ذلك من يمين المبتاع على علمه فحلف وبريء ثم أتى البائع بعد أيام بم شهد له أن صاحبه إنما دفع له سكة فاس وكان الذي تداعيا فيه من سكة فاس، فأحضر المبتاع ووبخه بأنه حلف آثما، وأنه قد ظهر كذبه وحكم عليه بإبدال الذهب، وإلى هذا انتهى بالعلم وأهله الحال.

الجزائـــــــر:

قد أقفرت من المعنى المطلوب كما أقفر من أهله ملحوب فلم يبق بها من هو أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة أو أديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأوف".

بجايـــــــــة:

غير أنه اعتراه من الغير ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، قد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشالاً، وعفا رسمه حتى عاد طللاً وبه آحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر، وسلحوا في ترك تصحيح الرواية طرقاً لم يرضها أعلام الأكابر".

بونـــــــــــــه:

"وصلنا إلى مدينة بونة فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة مبسوطة البسيط ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة يلاحظ من كثب فحوصها ممتدة وتراعي من البحر جزره ومده، تغازلها العيون من جور النوائب وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب، وقد ازعج السفر عن حلولها فلم أقض وطراً من دخولها ".

برقة: "وصلنا إلى القفر القواء أرض برقة، فوجدنا برية هي أم البراري والقفار والمهامه التي يحار فيها أرباب الأسفار، يتعذب عذابها المنفض من الحجاج كما استعذب الضمآن المورد الأجاج. امتدت وطالت، واشتدت وهالت، وأربدت وحالت ولو أنشدت لقالت "طويل"

أنا الغول غالت من يطور فناءها وتخدع بالألطاف طوراً وبالبر

فإن أكلوا بري شربت نفوسهم وكم بين نفس المرء في الغدر والبر

سكانها من الأعراب كل فظ غليظ، يحرج ببقائه الأحنف يغيظ حتى تكاد منه النفس تفيض لا جرم أنهم يقرؤون التنزيل ويوالون المنفض بالجميل، ولا معترض للحاج عندهم وإن كان فهو قليل، والشأن عندهم في التبايع المعاوضة في المبيعات والتبادل في المثمونات، لا يجري بينهم دينار ولا درهم، وباب التعامل بهما عندهم مبهم، وقاد ساوم أحد الحجاج بعضهم بجمل يعطيه به بكراً وزيادة دينارين فقال له: لا أدخل خيمتي ما لم يدخل قط خيمة أبي ولا جدي، وهذا حالهم في العينين يجهلون بهما أثمان الأشياء ويستعملون نساءهم في البيع والشراء فلا يتوصل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل وحال ممقوت ومن العجب عندهم أن كل امرأة لابد لها من خرقة تسد لها على وجهها ويسمونها البرقع، وهي تتخل الناس مكشوفة الرأس والأطراف حافية القدمين لا تهتم بستر ما سوى وجهها كأن ليس لها عورة سواه فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتساخ ومرصدا لعارض الأوساخ، لا تصان فتماط عن ذقن ولا تنزع فتماص من درن حتى تصير أوسخ من

عرض اللئيم وأقبح من وجه الشيطان الرجيم، فتفاجئ العيون من ذلك أشوه منظر يرى، وتسمع الآذان من وصفها أقبح حديث جرى".

قابس: ولا عيب فيها إلا الهواء وخامته تخاف، وماء غير من خالصه الماء المضاف، وبيوت المدينة دواجن سيئة الجوار، سريعة إلى القطان والزوار، كراها تنفيه، وسرها تخفيه ، وصلحها لا يطمع أحدا فيه، فقبحت شائلة الأذناب، شاملة بالعذاب، كامنة بارزة ،هامزة لامزة ، تطرق بالبلية، وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية، دبت عندنا ليلة إلى من كان يرمق دبيبها، ويحاول قبل أن تصيبه أن يصيبها، فأوقعت به لذغا في القدم ،ولقي أشد الألم ، وبات وبتنا معه في ليلة أخا ذبيان، وتعالى الله ما أطول ماكانت وأهول ما كان.

سلا:

".....وسلا كما عملت، سور حقير وثور، إلى التجنيد والتشييد فقير، إطام خاملة وللروم آملة، وقصبتها بالبلد متصلة، ومن دعوى الحصانة منتقلة، سورها مفرد، لا سلوقيّة نقية، وبابها تقصد لا ستائر تحميه، والماء بها معدوم، وليس له جب معلوم، ولا بير بالعذوبة موسوم، وفي عهد قريب استباحتها الرّوم في اليوم الشامس، من غير منجنيق نصب، ولا تاج ملك عليه عصب، قلة السلاح وعدم فلاح، وخمول سور، واختلال أمور.

.... وأي صناعة في سلا، يقصد إليها ويعول عليها أو يطرف بها قطر بعيد، أو يتجمل بها في عيد..

وسلا بلد الرجال، ومراعي الجمال بطيحة لا تنجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل جرد الخارج، وبحرها مكفوف بالقتب والمدارج، ووواديها ملح المذاق، مستمد من الأجاج الزلاق، قاطع بالرفاق من الآفاق، إلى بعد الإنفاق وتوقع الإغراق، وشابلها مقصور على فصل، وكم الشوكة من شانصل، عديمة الفاكهة والمتنزهات النابهة...

...وأين سلا من هذه المزية، والشنعة العلية، أين الجنود والبنود والحصون تزور منها الوفود، وإن كان بعض الملوك اتخذها داراً، واستطانها من أجل الأندلس قراراً، فلقد تمّ وما أتّم، وطلبه تمَّ.

...أما سلا فأحوال رقيقة، وثياب في غالب الأمر خليقة، وذمم فقيرة، وقيسارية حقيرة، وزيت مجلوب، وحلى غير معروف ولا منسوب تملأ مسجدها الفذّ العدد والأكسية، وتعدم فيها أو تقل الطيالس والأردية وتندر البغال، وتشهد بالسجية البربرية الأصوات واللغات والأقوال والأفعال...

...بلد منحرف منقطع مفترق، ثلثه مقبرة خالية وثلثه حزب بالية، وبعضه أخصاص وأقفاص، ومعاطن وقلاص وأوارى بقر تحلب ومعاطن سايمة تجلب...

....وسلا لا تأكل إلا من غزرة حالب، لا من فلاحة كاسب.

وسلا بلد عديم الظلال أجرد التلال ، إذا ذهب زمن الربيع، والحصب المريع، صار هشيماً وأضحى ماؤها حميماً، وانقلب الفصل عذاباً أليماً.

....وسلا المسكينة لا ترجو لعشرتها إلا ابن عشرتها، مهملة الذكر، والإشادة عاطلة من حلى تلك السيادة".

1.إذ مررت بوادي الآشا فقل رب من لدغة سلم

2.وكيف السلامة في منزل فيه عصبة من بني أرقم.

3.إسلح على كل فاسي مررت به بالعدوتين معاً، لا تبقين أحـــدا

4.قوم غذوا اللؤم حتى قال قائلهم من لا يكون لئيماً لم يعش رغداً

5.أسوار مكناسة مرقعة كأنها من ثياب أهليها

6.دار خراب على.....خر تناست حالها بمن فيها

7.إطعن بنعلك من تلقى من الناس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس

8..... مص الخليع زمان الورد للكـــــــــاس

9.إلى أين الفرار ولا فـــــرار ومن لي بالقرار ولا قـــــرار

10. أرى الأوغاد يعتمرون دورا ومالي في بـــــــلاد الله دار

11. إذا ركبوا المذاكي و المطايا فمركوبي على شرفي حمار

12. أجول فلا أرى إلا رعـــاعا كبارهم إذا اختبروا صـــــغار

13. أباجة لا وقاك الله شـــــرا فأهلك أهل مفسدة شـــــرار

14. أشلب لا جزاك الله خـــيرا فلا خير لديك ولا خـــــيار
15. أشنتميرية قبحـــــت دارا كؤوس المخزيات بـــها تدار
16. أشلطيش ألا غرق وشيك تموج على ثراك به البحـــار
17. أأونبة تعدتك الغـــوادي ولا هطلت بساحتك القــطار
18. ألبة كنت صالحة لكــن أتى بن خليفة وأتى الشـــنار
19. بلاد عريت من كل خير فملبس أهلها مقت وعـــــار
20. غلطت فزرتها فرأيت قوما منازلهم وإن عمرت قفـــــار
21. ترد علي أشعاري ويجفى رسولي،والنباهة لي شعـــار
22. شتوت بها على كره فغطى على جدي ومعرفتي الغبـــار

23. ألا قل لأهل القيروان لحاكم وأستاهكم هانت عليكم فهنتم
24. فأستاهكم تعطونها ولـحاكم تعفونها بالحلق طرا لعـنتم

25. أهل "سلا" صاحت بهم صائحه غادية في دورهم رائحة
26. يكفيهم من عوز أنـــــــــهم ريحانهم ليست له رائحة

27. أيها السائل عن أرض تنـــــــــس مقعد اللؤم المصفى والدنـــــــــس

28. بلدة لا ينزل القطر بـــــــــــــها   والندى في أهلها حرف ـــــــــدرس
29. وماؤها من قبع ما خصت بــــــــه   نجس يجري على ترب نجـــــــس

30. فمتى تلعن بلاداً مــــــــــــــرة   فاجعل اللعنة دأباً لتنـــــــــــــس

31. بئس دار المرية فيها   ليس فيها لساكن ما يحب
32. بلدة لا تمار إلا بريح   ربما قد تهب أو لا تهب

33. بتافلفلت برغوث كثير   يضج لهوله الملك الأثير
34. إذا عجلت لنا بالوثب قلنا   أثار جراد مزرعة مثير

35. بطريق بيرة أجبل وعقاب   يرتجي فيها النجاة عقاب
36. فكأنما الماشي عليها مذنب   وكأنما تلك العقاب عقاب

37.

38. بغيضة وحش الليل خوف ووحشة   كأن فؤادي وحشة قد أعــارها
39. ولكن هذي أقفرت من أنيســـــها   وغيضة قلبي يسكن الهم دارها

40. بلنسية بيني عن القلب سلوة فإنك زهر لا احن لزهـــــــرك

41. وكيف يحب المرء دارا تقسمت على ضاربي جوع وفتنة مشرك

42. خذوا ضماني ألا تفلحوا أبدا ولو شربتم مداد الكتب بالصحف

43. أنتم صغار كبار عند أنفسكم لا يهتدي من يقيس الدر بالصدف

44. شاطبه الشـرق شر دار ليس لساكنها فـــلاح

45. الكسب من شأنهم ولكن أكثر مكسوبهم سلاح

46. إن لهم في الكنيف حفظاً وهي بأستاههم مباح

47. شاطبه قرية ضنينـــــــة

48. تهتضم الطيب اهتضـــاماَ وتأنف الدهر أن تعينه

49. والخبث المحض تصطفيه ضد لما جاء في المدينة

50. شريش ماهـــي إلا تصحيف شر يين

51. فارحل فديتك عنها إن كنت ممن تدين

52. فقلما ساد فيها حر ولا من يعين

53. صفاقس لا صفى عيش لساكنها ولا سقى أرضها غيث إذا انسكـــــبا

54. ناهيك من بلدة من حل ســاحتها عانى بها العاديين الروم والعـــــربا

55. كم ظل في البر مسلوبا بضاعته وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا

56. وليتها فتولتني الهموم وقـــــد لقيت من سفري في أرضها نصـــبا

57. قد عاين البحر قبحا في جوانبها فكلما همّ أن يدنوا لها هـــــــرب

58. ضاقت بلنسية بـــي وذاد عني غموضي

59. رقص البراغيث فيها على غناء البعوض

60. على أهل مرسية لعــنة تعم الديار وأربابهـــــا

61. فما غلقت قط مذ فتحت على فاضل الطبع أبوابها

62. كلاب تهر إلى شاعــر وتكشف للشر أنيابهـــا

63. على سرقسطة أبكـــي دما وأمواهها العذبة المحييـــة

64. وقوم كرام فواحســـــــرة على الجمع منهم أو التثنية

65. وأصبحت في بلدة أهـــلها سباع لأهل النهى مـــؤذية

66. كان بلنسية زيـــــــــنت لشاطبة فاحتفت مـــــرسية

67. تعوضت منها بــأرض أرى أفاعيل أربابها ملهـــــــية

68. فكم كاس ذل تجرعتهـــــا ولم أبدها وهي لي مخـــزية

69. وكم ليلة بتها طاويـــــــا ونفسي عن الكشف مستحيية

70. وقد يلبس المرء حر الثياب ومن تحتها حالة مضـــنية

71. كما يكتسي خده حمـــــرة وعلتها ورم في المـــــــرية

72. عسى الله يعقبنا صحة فمن عنده الداء والأدويـــة

73. يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم فأصبحت فيكم الآراء متفقـــــــة

74. كل امرئ فيكم قد حاز منقـــصة بها أحاط كدور العين بالحدقـــة

75. وربما اجتمعت في بعض سادتكم نقائص أصبحت في الناس مفترقة

76. كالقرن والقود المشهور والكذب الـ معروف والخلة الشنعاء والسرقـــة

77. فلا تهابن فاسياً مررت بـــــــه وإن تقل فيه خيراً حول الورقـــة

78. والعنه شيخاً وكهلاً واجفه حدثـــاً .....طفلاً ولوألفيته علقه

79. فلاسفى الله فاساً صوب غاديـــة نعم ولا اخضر في أرجائها ورقة

80. يا ابن السبيل إذا مررت بتادلا تنزلن على بني غفجوم

81. أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاوبة الصدى للبوم

82. قوم طوو ذكر السماحة بينهـم لكنهم نشروا لواء الـــــلوم

83. لاحظ في أموالهم ونوالهـــــم للسائل العافي ولا المحروم

84. لا يملكون إذا استبيح حريمـهم إلا الصراخ بدعوة المظلوم

85. يا ليتني من غيرهم ولو أنني من أرض فاس من بني الملجوم

86. يا حضرة الملك ما أشهاك لي وطناً لولا ضروب بلاء فيك مصبوب

87. ماء زعاق وجو كله كـــــدر وأكلة من بذنجان ابن معــيوب

88. ياحمص لازلت دارا لكل بؤس وساحة

89. مافيك موضع راحة إلا وما فيه راحة

90. يا سرت لا سرت بك الأنفس لسان مدحي فيكم أخرس

91. ألبستم القبح فلا منظر يروق منكم لا ولا ملبس

92. بخستم في كل أكرومة وفي الخنا واللؤم لم تبخسوا

93. عوضت من قرطبة يابره تلك لعمري كرة خــاسرة

94. كآدم حين عصى ربـــه عوض بالدنيا من الآخرة

95. فراق الهم عند خروج فاس لكل ملمة تخشى وباس

96. فأما أرضها فأجـــل أرض وأما أهلها فأخس نـــاس

97. بلاد لم تكن وطـــنا لحر ولا اشتملت على رجل مواسي.

98. قبحاً لرندة مثلما قبحت مطالعة الذنوب

99. بلد فيه وحشه وما إن يفارقه القطوب

100. ما حلها أحد فينوي بعد بين أن يؤوب

101. لم آتها عند الضحى إلا وقيل لي الغروب

102. أفق أغم وساحة تملأ القلوب من الكروب

103. قصدت خلة فاس أسترزق الله فيهم

104. فما تيسير منهم دفعته لبنيـــــــهم

105. قلقت وحق بأن يقلقـــا مصون غدا غرضا للشقا

106. حللت بلادا كستني بـها يد الليث من سقم يلمــقا

107. وردت قلمرية طامـــــعا فلم ألف برا ولا مرفقـــا

108. حرمت كأني دون الورى طلبت العقوق بها الأبلـقا

109. كل سوسي بسوسه نفسه نفس خسيسه

110. بعضهم ينهش بعضا ككلاب في فريسة

111. لا ترجون بني سعيد للندى فالظل أفد منهم للسائل

112. قوم مصيبتهم بطلعة وافد وسرورهم أبدا بخيبة راحل

113. لاجادك الغيث إذا ما سقى غيث بلاد الله يا بلذوذ

114. ما أنت يا مغنى الأذى والقذى في مذهب المعمور إلا شذوذ

115. ماذا لقينا (بماغوس) من اللغط ليلاً ومن هرج الأحراس والشرط

116. ومن رداءة ماء لا يسوغ لنـــا شراب جرعته إلا على الشطـط

117. ومن لغات حوالينا مبربـــــرة كأننا في بلاد الزنج والنـــــبط

118. جرداء لا شجرات يستظل بها أنيس يريح النفس من قنـــط

119. منارها قعد الباني بنصبـــته فلا تثير إليك عين مغتـــــــبط

120. كأنه فيشة جاءوا لقلفتـــــها بخاتن قط منها النصف

121. ما أخشن البرد و ريعانـــــه وأطرف الشمس بتاهرت

122. تبدو من الغيم إذا ما بـــدت كأنها تنشر من تخت

123. نحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السمت

124. نفرح بالشمس إذا ما بـــدت كفرحة الذمي بالسبت

125. ماذا لقينا (بماغوس) من اللغط ليلاً ومن هرج الأحراس والشرط

126. ومن رداءة ماء لا يسوغ لنـــا شراب جرعته إلا على الشطـط

127. ومن لغات حوالينا مبربـــــرة كأننا في بلاد الزنج والنـــــبط

128. جرداء لا شجرات يستظل بها ولا أنيس يريح النفس من قنـــط

129. منارها قعد الباني بنصبـــته فلا تثير إليك عين مغتـــــــبط

130. كأنه فيشة جاءوا لقلفتـــــها بخاتن قط منها النصف عن غلط

131. ما غر قفصة إلا أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

132. ما بالها زار أمن الله حوزتها فلم يكن عندها أهل وترحيب

133. تلك البغي التي خانت فحاق بها وبالزناة بها رجم وتغريب

134. قد فض شملهم عنها وقد نعيت بها من الحين غربان غرابيب

135. أما يرد سليما ما يباشره وفيه للنفس ترغيب وترهيب

136. هذي أعاديه قد صارت مقسمة على البلايا فمقتول ومسلوب

137. ما كان ظني وحق اللّه فرقتكـم لو أن مراكشا كانت تواتيني

138. أظل في نصب مما أكابد مـــــن نفض الغبار ومن طرد الذبابين

139. وطول ليلي في كر وفي تعـــب ما بين بق وناموس يناغيني

140. أبيت أحس فرشي من عقاربـــها والقلب في فكر منها وتخمين

141. إذا رأيت سواداً مرّ بي وأتـــــى ظننته عرقباً دبت لتؤذينـــــي

142. لم يبق في الفم ضرس أستعد بــه أفناه مضغ الحصا من ذي الطواحين

143. منوا عليّ بإطلاقي بفضلكـــــم هذا العجاج بها قد كاد يعميني

144. لم يبق في الكيس فلس أستعين به أفنيت مالي في غسل وتصبين

145. مشى اللؤم في الدنيا طريدا يجوب بلاد الله شرقا ومغربا

146. فلما أتى فاسا تلقاه أهلها وقالوا له:أهلا وسهلا ومرحبا

147. مكناسة حشرت بها زمر العدا فمدى بريد فيه ألف مريد

148. من واصل للجوع لا لرياضة أو لابس للصوف غير مريد

149. فإذا سلكت طريقها متصوفاً فانو السلوك بها على التجريد

150. نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر وأصبحت عن دار الأحبة في أسـر

151. وأصبحت عن تيهرت في دار غربــة وأسلمني مر القضاء من القـــــدر

152. إلى تنس دار النحوس فإنـــها يساق إليها كل منتقص العمـــــــر

153. هو الدهر والسياف والماء والحاكـــم وطالعها المنحوس صمصامة الدهر

154. بلاد بها البرغوث يحمل راجـــــــلاً ويأوي إليها الذئب في زمن الشـــــر

155. ويرجف فيها القلب في كل ساعـــــة بجيش من السودان يغلب بالوفـــــر

156. ترى أهلها صرعى دوى أم ملـــــــدم يروحون في سكر ويغدون في سكـر

157. وهت مني القوى بطريق شاط ودار على تألمـــي الإزار

158. فلا سنى الإله مـــــــزار شاط إذا ما شاط شط بها المزار

الفهـــــــــارس

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.

1- **إبراهيم علي الكردي**، الرحالة العبدري، كلية المعلمين، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، دط، دت.

2- **إبراهيم رماني**، المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، مصر، 1997.

3- **إحسان عباس**، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمان، دط، 1997م.

4- **أحمد أمين**، زكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، القاهرة، 1943.

5- **أحمد سليماني**، تاريخ المدن الجزائرية ، دار القصبة للنشر، دط ، الجزائر، 2007.

6- **أحمد مختار العبادي**، في تاريخ المغرب والأندلس،مؤسسة الثقافة الجامعية، دط، الأسكندرية (مصر)، دت.

7- **آرثر بولارد**، موسوعة المصطلح النقدي، تر: عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت (لبنان)، دت.

8- **أرسطو**، نقد الشعر، نقلا عن أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر وزارة الاعلام، الكويت، 1984، ع:1.

9- **بالقاسم مالكية**، عتبات النص–العنوان، مجلة الأثر، ع14، جامعة قصدي مرباح ورقلة، 2012.

10-**بطرس البستاني**، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانحطاط، دار نظير عبود، دط، دب، دت.

11-**البكري**، أبي عبيد، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، مكتبه المثنى، دط ، بغداد، دت.

12- **ابن جبير**، الرحلة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،دط، الجزائر،1988.

13- **جميل حمداوي**، السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، م25، ع3، 1997.

14-**الحسن الشاهدي**، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، منشورات عكاظ، دط ، الرباط، دت.

15-**الحميري، محمد بن عبد المنعم**، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس ، مطابع هيدلبرغ، ط2 ، بيروت (لبنان)، 1948.

16-**الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت**، تاريخ مدينة السلام، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1422هـ،2001م.

17-**ابن خلدون عبد الرحمان**، المقدمة مكتبة القرآن، دط، القاهرة،2006.

18-**ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد**، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، ط،1 بيروت، 1994.

19- **ابن رشيق، حسن القيرواني**، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، دط ، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1406هـ – 1986م.

20- **زكي مبارك**، النثر الفني في القرن 04، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، القاهرة، 2013م.

21- **سبط ابن التعاويذي**، أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله، الديوان، تح: د. س مرجليوث، مطابع المقتطف، دط ، مصر،1903.

22- **سراج الدين محمد**، موسوعة مبدعون، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية،دط، بيروت(لبنان)، دت.

23- **السرقسطي أبو طاهر محمد بن يوسف**، المقامات اللزومية، تح: حسن الوراكلي ، عالم الكتب الحديث،ط2، إربد(الأردن)، دت.

24- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، مجلة عالم الفكر، م:11، ع:1.

25-**ابن سعيد المغربي**، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، دت.

26- **السملالي العباس بن إبراهيم** ، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من أعلام، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1413هـ، 1993م.

27- **سميرة أنساعد**، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، دار الهدى، دط ، عين مليلة (الجزائر)، 2009م

28- **الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي**، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، ط1، دب، 1373هـ- 1954م.

29- **شكيب أرسلان**، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية ط1، بيروت(لبنان)،1417هـ -1997م.

30- **شوقي ضيف**، المقامة، دار المعارف، ط7، القاهرة، 1

31- **صفوان بن إدريس أبو بحر التجيبي المرسي**، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، دد، دط، بيروت 1358هـ-1939م.

32- **عبد العزيز غوردو**، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب،جدلية التمدين والسلطة، دار ناشري للنشر الإلكتروني،ط2 الكويت،2011.

33-**عبد الفتاح كيليطو**، المقامات السرد والانساق الثقافية، تر:عبد الكريم الشرقاوي،دار توبقال للنشر،ط2، المغرب 2001.

34-**عبد الله كنون**، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دد،ط2،دب،دت.

35-**أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي**، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار،المكتبة السلفية ومكتباتها، دط ، القاهرة، 1349هـ.

36-**ابن عذارى المراكشي**، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح:ج.س كولان، إ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة ،ط2، بيروت(لبنان)، 1983.

37-**عمرو بن كلثوم**، الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، دط، بيروت (لبنان)، 1424 هـ_2004م.

38-**العبدري محمد**، الرحلة المغربية، تح: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، بونة ط1، 1428هـ-2007م.954م.

39- **ابن عنين**، الديوان، نقلا عن، مشهور الحبازي، شعر هجاء المدن والأقاليم في زمن حروب الفرنجة ، الآداب جامعة القدس، دط ، فلسطين، دت.

40- **الغزالي عبد الله محمد**، المنجز السردي العربي القديم، مكتبة آفاق، ط1،الكويت، 1432هـ- 2011م .

41-**ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكرياء**، معجم مقاييس اللغة، تح:عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، دط ، دب، 1989م- 1399هـ.

42- **أبو الفرج قدامة بن جعفر**، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، دط، بيروت (لبنان)، دت.

43- **فيصل الأحمر**، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، ط1،الجزائر،1431هـ-2010.

44-**الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب**، القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية، ط2 بيروت، (لبنان)، 2007.

45-**ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء**، تح: مصطفي السقا، المكتبة التجارية الكبرى، ط2، مصر، 1350هـ-1932م.

46-**القرشي**، جمهرة أشعار العرب، تح: خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، دط، بيروت(لبنان).

47-**كارل بروكلمان**، تاريخ الأدب العربي، ، دار المعارف، ط4، القاهرة، دت.

48- **كمال محمد شبانة**، الدويلات الإسلامية في المغرب دراسة تاريخية حضارية، دار العالم العربي، ط1، مصر، محرم1429-يناير2008

49- **لسان الدين بن الخطيب**، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية، دط ، القاهرة، 1423هـ-2002م.

50- **لسان الدين بن الخطيب**، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، 1401هـ-1981م.

51-**ليليان هيرلانديز وآخرون**، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، تر: محمد الجورا، دار الحقائق، ط1، بيروت (لبنان).

52- مؤلف أندلسي من أهل القرن 8هـ، الحلل الموشة في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة ، دار الرشاد، ط1، الدار البيضاء (الرباط)، 1399هـ، 1979م.

53- **محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني**، رحلة التجاني ، الدار العربية للكتاب، دط ، تونس، 1981.

54-**محمد سامي الدهان**، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي6، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1982.

55- **محمد بن عميرة**، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر،2008.

56-**محمد مسعود جبران**، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، دار المدار الثقافية، ط1، البليدة (الجزائر)، 1430هـ-2009م.

57- **محمد مصطفى هدارة**، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، دط، القاهرة، 1963م.

32- **محمد مفتاح**، تحليل الخطاب الشعري، استراتجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط4، المغرب، 2005.

58- **محمد مفتاح**، دينامية النص، ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006.

59- **م. محمد حسين**، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميز، دط، دب، دت،.

60- **المعري أبو العلاء** ، سقط الزند، دار صادر، دط، بيروت، دت.

61- **المقري أحمد بن محمد** ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، دط، بيروت، 1408هـ

62- **المكناسي أحمد بن قاضي** ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة، دط ، الرباط،1973.

63- **النميري ابن الحاج**، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، بيروت 1990م.

64- **ابن منظور**، لسان العرب، تح: عبج الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، دط، القاهرة ، دت.

65- **موسى لقبال** ،المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، سياسة ونظم، المؤسسة الوطنية للكتاب ط3، الجزائر،1984

66- **يوليانوفتش أغناطيوس كراتشكوفسكي**، تاريخ الأدب العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط ، دب، 1957.

فهرس المـــــــــدن

المدينة	ص	الدولة	العاصمة
إربل	28	العراق	بغداد
أرثخشميثن	30–22	/	/
بخارى	48	/	/
برجة	81	إسبانيا	/
برقة	62	ليبيا	طرابلس
بغداد	25 –16	العراق	بغداد
بلنسية	86	إسبانيا	/
بيرة	80	إسبانيا	/
تلمسان	56	الجزائر	الجزائر
تنس	64	الجزائر	الجزائر
جرجان	21	إسبانيا	/
حران	41	تركيا	إسطنبول
رندة	83	إسبانيا	/
سجستان	38	/	/
شاطبة	85	إسبانيا	/
صالحة	79	إسبانيا	/
طرابلس	59	ليبيا	طرابلس
غرناطة	76	إسبانيا	/
فاس	68	المغرب الأقصى	مراكش
فنيانة	79	إسبانيا	/
القيروان	61	تونس	تونس
مالقة	77	إسبانيا	/
مراكش	66	المغرب الأقصى	مراكش
المرية	84	إسبانيا	/
مصر	29 –18	مصر	القاهرة

الملخـــــص

ملخص:

يندرج البحث المقدم في إطار الأدب القديم، والذي يوجه عنايته خاصة للمغربي والأندلسي منه، أما إشكاليته فقائمة بين الهجاء كفن وجد منذ القديم والمدينة كمتغير، لننظر في مدى حضور فن هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي، وما الموضوعات والأشكال التي احتضنته؟ فيتكئ البحث من خلال ذلك على جمع المادة واستقصائها بشقيها النثري والشعري، ثم يختم بدراسة فنية وجمالية للجانب الشعري ودراسة معتمدة على المنهج السميائي في دراسة النموذج النثري والمتعلق بفن المقامة.

Rusémé:

La recherche s’insèrre dans le domaine de l'ancienne littérature, qui dirige son attention essentiellement pour la littérature maghrébine et andalouse, sa problématique se situe entre La satire en tant qu’un art trouvée depuis l’antiquité et la ville comme un inconstant, pour voir la présence de l'art de la satire civile dans la littérature maghrébine et andalouse, et quel sont les sujets et les formes qu'il prit ? de ce fait la recherche se base sur la collection des documents qui seront étudiés par la suite de ses deux cotés prosaïque et poétique à la fois, puis elle se conclut par une étude artistique et esthétique du côté poétique et une étude qui s’appuie sur la méthode sémiotique pour l' ètude du model prosaïque qui s’interesse àl'art dit «el-makama».